الينابيع

الدكتور نبيل راغب

نَسَمَة الرَّبيع



مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

نَسَمَة الرَّبيع

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ)، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

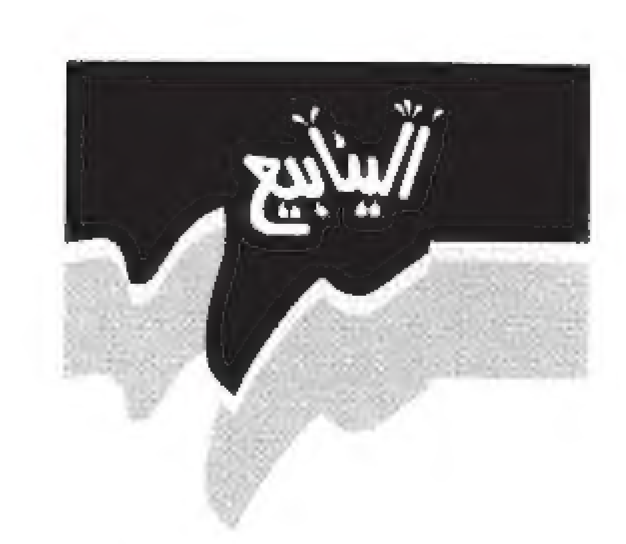
الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الايداع ١٣٥١٢ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي X - ١٠٤٨ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

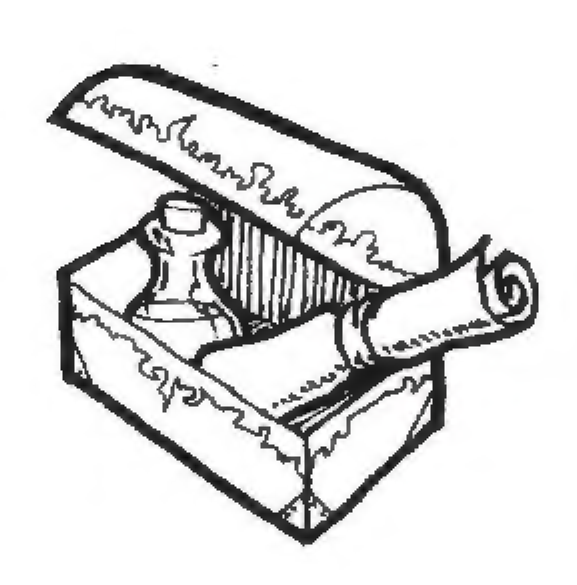
رسوم : يوسف راغب

طبع في مطابع الأهرام التجارية - قليوب (طريق مصر - الإسكندرية الزراعي)



نَسَمة الرَّبيع

الدكتور نبيل راغب



مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

- ١ -

كانَ في قَديمِ الزَّمانِ، وسالِفِ العَصْرِ والأَوانِ، رَجُلٌ مِنْ أَكابِرِ مَدينَةِ الكوفَةِ، يُقالُ لَهُ الرَّبيعُ بنُ حاتِمٍ، وكانَ كَثيرَ المالِ، مُرَفَّهَ الحالِ. وقَدْ رُزِقَ وَلَدًا سَمّاهُ «يوسُف».

وذاتَ يَوْمٍ كانَ في سوقِ الجَواري عِنْدَما رَأى جارِيَةً مَعْروضَةً لِلْبَيْعِ، وفي حِضْنِها طِفْلَةٌ آيَةٌ في الجَمالِ، فَسَأَلَ النَّخّاسَ الَّذي يَبيعُهُما عَنْ ثَمَنِهِما، فَأَجابَ: «هُما بِخَمْسينَ دينارًا.»

فَقالَ لَهُ الرَّبيعُ: «أُكْتُبِ العَقْدَ وهَذا هُوَ الثَّمَنُ لِكَيْ تُسَلِّمَهُ لِمَوْلاهُما.»

ثُمَّ دَفَعَ لَهُ المالَ وفَوْقَهُ أَجْرَ دِلالَتِهِ، وتَسَلَّمَ الجارِيَةَ وابْنَتَها، ومَضى بِهِما إلى بَيْتِهِ حَيْثُ سَلَّمَهُما إلى زَوْجَتِهِ

وهُوَ يَقولُ لَها: «اِشْتَرَيْتُهُما لأَنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُقاوِمَ سِحْرَ الصَّغيرَةِ الَّتي في حِضْنِها، وأرى أَنَّها إذا كَبُرَتْ فَلَنْ يَكونَ في بِلادِ العَرَبِ والعَجَمِ مِثْلُها في الجَمالِ!»

سَعِدَتِ الزَّوْجَةُ بِجَمالِ الصَّغيرَةِ الَّتي أَطْلَقَتْ عَلَيْها اسْمَ «نَسْمَةَ الرَّبيع»، لِتَتَرَعْرَعَ مَعَ ابْنِها يوسُفَ تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ، إلى أنْ بَلَغا مِنَ العُمْرِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا.

وكانَ كُلُّ مَنْ يَراهُما يُعْجَبُ بِجَمالِهِما وأَدَبِهِما وظَرْفِهِما، فَلَمْ يَكُنْ هُناكَ في الكوفَةِ مَثيلٌ لَهُما في أُخُوَّتِهِما الَّتي ضُرِبَ بِها المَثَلُ. لَكِنْ مَعَ بُلوغِهِما هَذِهِ السِّنَّ الحَرِجَةَ، أَقْبَلَ الرَّبيعُ عَلَى ابْنِهِ يوسُفَ ذاتَ يَوْمٍ وقالَ لَهُ: «يا وَلَدي، لَيْسَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ أُخْتَكَ، بَلْ هِيَ جارِيَتُكَ، وقَدِ اشْتَرَيْتُها لَكَ وَأَنْتَ في المَهْدِ، فَلا تَدْعُها بِأُخْتِكَ مِنَ اليَوْمِ!»

اجْتاحَتِ المَشاعِرُ المُتناقِضَةُ المُتَلاطِمَةُ يوسُفَ، ولَكِنَّهُ بَدا كَما لَوْ أَنَّهُ دَخَلَ كَهْفًا سِحْرِيًّا بَعْدَ أَنْ خَرَجَ

فَجْأَةً مِنْ كَهْفِ الطُّفولَةِ. قالَ: «ما دامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَهِيَ رَفيقَةُ عُمْري، سَواءٌ أَكانَتْ أُخْتي أَمْ حَبيبَتي! وإذا نَجَحْتُ في التَّخَلُّصِ تَمامًا مِنْ مَشاعِرِ الأُخُوَّةِ الخالِصَةِ، فَرُبَّما تَزَوَّجْتُها، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَخَيَّلَ حَياتي بِدونِها!»

وأَحَبَّ يوسُفُ نَسْمَةَ الرَّبيعِ حُبًّا جَمًّا، وبادَلَتْهُ هِيَ الحُبَّ نَفْسَهُ. وذاعَ صيتُهُما في كُلِّ أَنْحاءِ الكوفَةِ الَّتي لَمْ تَشْهَدْ مِثْلَها في كَمالِ حُسْنِها وظَرْفِها، وحِفْظِها لِلشِّعْرِ، وإتْقانِها لِلْغِناءِ والعَزْفِ عَلى آلاتِ الموسيقى، بِحَيْثُ فاقَتْ كُلَّ بَناتِ عَصْرِها. لَقَدْ كانَتْ بَهْجَةُ الدُّنيا كُلُّها، في كُلِّ لَحْظَةٍ يَراها فيها، وشَرَعَ في التَّفْكيرِ الجادِّ في الارْتِباطِ بِها كَزَوْجٍ.

وفيما هُوَ مُنْهَمِكٌ في الإِعْدادِ لِذَلِكَ، سَمِعَ الحَجّاجُ ابْنُ يوسف الثَّقَفِيِّ والِي الكوفَةِ بِأَمْرِها، فَقَرَّر أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى هَذه الجارِيَةِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، ويُرْسِلَها إلى الخليفَةِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ، فَلَيْسَ في قَصْرِهِ المَنيفِ مِثْلُها في

جَمالِها وسِحْرِها وظَرْفِها ومَهارَتِها في فُنونِ الغِناءِ والموسيقى.

اسْتَدْعى الحَجّاجُ بنُ يوسُفَ الثَّقَفِيِّ عَجوزًا تُسَمَّى قَهْرمانَةَ اِشْتُهِرَتْ عِنْدَهُ بِالخُبْثِ والنِّفاقِ والدَّهاءِ والخداعِ والكَذِبِ، وادِّعاءِ التَّقْوى والوَرَعِ، وهِيَ أَبْعَدُ ما تَكونُ عَنْهُما. طَلَبَ مِنْها أنْ تَمْضي إلى دارِ الرَّبيعِ ابْنِ حاتِمٍ، وتُمارِسَ فُنونَها في الاحْتيالِ والتَّخَفّي حَتّى يَأْمَنَ لَها أَهْلُ الدّارِ، ووَعَدَها بِصُرَّةٍ مِنَ الدَّنانيرِ الذَّهَبِيَّةِ.

انْطَلَقَتْ في خِفَّةٍ تُسابِقُ الرّيحَ إلى بَيْتِها أَوْ وَكْرِها، لِتَضَعَ عَلى وَجْهِها خِمارًا أَبْيَضَ، وتَرْتَدِيَ ثَوْبًا مِنَ الصّوفِ الأَسْوَدِ، وتَلُفَّ حَوْلَ عُنُقِها سُبْحَةً حَبّاتُها أُلوفٌ مِنَ القَهْرَمانِ والعاجِ والآبِنوسِ والياقوتِ، وَتُمْسِكَ بِيَدِها عُكّازًا مِنْ خَشَبِ البَلّوطِ.

وسارَتْ في طَريقِها وهِيَ تُرَدِّدُ بِصَوْتٍ عالٍ: «سُبْحانَ اللهِ والحمدُ للهِ، ولا إلَهَ إلا الله، والله أَكْبَرُ، ولا حَوْلَ

ولا قُوَّةَ إلا بِالله العَلِيِّ العَظيمِ.» وكَثيرًا ما هُرِعَ المارَّةُ البُسَطاءُ لِتَقْبيلِ يَدِها طَلَبًا لِبَرَكَتِها!»

ولَمْ تَزَلْ في تَسْبيحٍ وابْتِهالٍ، وقَلْبُها طافِحٌ بِالمكْرِ والاحْتِيالِ، حَتّى بَلَغَتْ دارَ يوسُفَ بنِ الرَّبيعِ عِنْدَ صَلاةِ العَصْرِ، وقَرَعَتِ البابَ، فَفَتَحَ لَها البَوّابُ الَّذي مَنَعَها مِنَ الدُّخولِ، وطَلَبَ مِنْها أنْ تَذْهَبَ إلى أَقْرَبِ مَسْجِدٍ لِتُصَلِّيَ العَصْرَ، ولَكِنَّها صَرَخَتْ فيهِ آمِرَةً: «هَلْ يُمْنَعُ مِثْلي مِنْ دُخولِ دارِ يوسُفَ بنِ الرَّبيعِ بن حاتِمٍ لأداءِ صَلاةِ العَصْرِ، وأنا أَدْخُلُ دورَ الأُمَراءِ والأكابِرِ؟»

وسَمِعَ يوسُفُ جِدالَهُما، فَخَرَجَ إلى العَجوزِ، ولَـمّا



رَأى هَيْئَتَها رَقَّ لِشَيْخوخَتِها وسَمَحَ لَها بِالدُّخولِ، فَهُوَ يؤمِنُ بِالبَرَكَةِ الَّتي تَحُلُّ بِحُلولِ كِبارِ السِّنِّ، وخاصَّةً أَنَّهُ سَيَعْقِدُ قِرانَهُ على نَسْمَةِ الرَّبيعِ بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ.

دَخَلَ يوسُفُ وخَلْفَهُ قَهْرَمانَةُ إلى حَيْثُ جَلَسَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ في أَبْهى زينَتِها، فَسَلَّمَتْ عَلَيْها العَجوزُ أَحْسَنَ سَلامٍ،

وذَهِلَتْ مِنْ فَرْطِ جَمالِها وسِحْرِها، فَقالَتْ لَها: «بارَكَ اللهُ لكُما في زَواجِكُما، ومَنَحَكُما المالَ والبَنونَ. بَعْدَ عَقْدِ القِرانِ المُبارَكِ، سَأَظَلُّ في قِيامٍ وقُعودٍ، ورُكوعٍ وسُجودٍ، راجِيَةً المَوْلى سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْ يُسْبِغَ عَلَيْكُما نِعْمَتَهُ وبَرَكَتَهُ.»

فَلَمّا سَمِعَتْ نَسْمَةُ كَلامَها، وَثِقَتْ بِصَلاحِها وتَقْواها، وقالَتْ لِعَريسِها: «لَيْتَ هَذِهِ العَجوزَ الصّالِحَةَ تُقيمُ عِنْدَنا مُدَّةً عَسى أَنْ يَنْفَعَنا صَلاحُها، ونَحْنُ مُقْبِلانِ على حَياةٍ جَديدَةٍ...»

فَقالَ مُرَحِّبًا بِالفِكْرَةِ المُبارَكَةِ: «أَخْلي لَها مَكانًا لِلْعِبادَةِ، ولا تَدَعي أَحَدًا يَدْخُلُ عَلَيْها. ولَعَلَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى يَنْفَعُنا بِبَرَكَتِها ولا يُفَرِّقُ بَيْنَنا.»

واقْتَصَرَ عَقْدُ القِرانِ على أَفْرادِ الأُسْرَةِ والشُّهودِ، وبَدَأَ الاحْتِفالُ بِالمُناسَبَةِ السَّعيدَةِ بِمَدِّ السِّماطِ (ما يُوضَعُ عليهِ الطَّعامُ) الزّاخِرِ بِكُلِّ أَطايِبِ الطَّعامِ والشَّرابِ، لَكِنَّ قَهْرَمانَةَ اعْتَذَرَتْ عَنْ عَدَمِ

المُشارَكَةِ لإيمانِها بِأَنَّ مَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ أَتْعَبَ نَفْسَهُ في الدُّنْيا، ومَنْ لَمْ يُتْعِبْ نَفْسَهُ في الدُّنْيا لَمْ يَنَلْ مَنازِلَ الأَبْرارِ في الآخِرَةِ. وبِالفِعْلِ باتَتِ العَجوزُ لَيْلَتَها تُصَلّي وتَتَهَجَّدُ حَتّى الصَّباحِ حينَ أَقْبَلَتْ على يوسُفَ ونَسْمَةَ، وصَبَّحتْ عَلَيْهِما مُسْتَوْدِعَةً إيّاهُما بِقَوْلِها: «سَأَنْصَرِفُ الآنَ لِزِيارَةِ بَعْضِ الأَماكِنِ الطّاهِرَةِ، لأَدْعوَ لَكُما عَقِبَ كُلِّ صَلاةٍ وعِبادَةٍ، وأَعودُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْكُما.»

ثُمَّ خَرَجَتْ مِنَ الدّارِ، وقَدْ تَأَثَّرَتْ نَسْمَةُ بِفِراقِها أَشَدَّ التَّأَثُّرِ، فَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ السَّبَبَ الَّذي أَتَتْ إِلَيْهِما مِنْ أَجْلِهِ!

– ٢ –

ذَهَبَتِ العَجوزُ إِلى الحَجّاجِ لِتَقُصَّ عَلَيْهِ ما رَأَتْ مِنْ جَمالِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ وسِحْرِها، فَوَعَدَها بِمُضاعَفَةِ الهِبَةِ الذَّهَبِيَّةِ عِنْدَما يَتِمُّ المُرادُ. ولَمْ تَذْكُرْ عَقْدَ قِرانِها بِكَلِمَةٍ، لِتَسْهيلِ مُهِمَّةِ خَطْفِها كَمُجَرَّدِ جارِيَةٍ. وكُلُّ ما طَلَبَتْهُ مِنَ الحَجّاجِ أَنْ يُمْهِلَها شَهْرًا حَتّى تَنْهَضَ بِمُهِمَّتِها على الوَجْهِ

المَنْشودِ، فَأجابَها إلى طَلَبِها.

وأَخَذَتْ قَهْرَمانَةُ تَتَرَدَّدُ إلى دارِ يوسُفَ وزَوْجَتِهِ نَسْمَةَ، وهُما يَزيدانِ في إكْرامِها، وأصْبَحَتْ مَوْضِعَ تَرْحيبٍ وإكبارٍ مِنْ كُلِّ مَنْ في الدّارِ، خاصَّةً أَنَّها تفوَّقَتْ عَلى نَفْسِها في أساليبِ الخِداعِ والاحْتِيالِ والمُداهَنَةِ، فَأَصْبَحَتْ ضَرورَةً مُبارَكَةً لا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْها أَهْلُ الدّارِ لِدَرَجَةِ أَنَّ الوَحْشَةَ كانَتْ تَجْتاحُهُمْ كُلَّما خَرَجَتْ.

ذاتَ يَوْمٍ خَلَتْ قَهْرَمانَةُ إلى نَسْمَةَ، فانْتَهَزَتِ الفُرْصَةَ لِتَهْمِسَ لَها قائِلَةً: «لَقَدْ طُفْتُ بِالأماكِنِ الطّاهِرَةِ ودَعَوْتُ لَكِ، وأَتَمَنّى أَنْ تَكوني مَعي لِتُشاهِدي المَشايِخَ الواصِلينَ، وتَتَلَقّي البَرَكَةَ مِنْهُم اسْتَأْذِني أُمَّ يوسُفَ أَنْ تَخْرُجي لِنَوالِ البَرَكَةِ.»

وفي الحال طَلَبَتْ نَسْمَةُ مِن يوسُفَ نَفْسِهِ أَنْ يَسْمَحَ لَها ولأُمِّهِ بِالخُروجِ مَعَ العَجوزِ الصّالحَةِ لِزِيارَةِ بَعْضِ المَشايِخِ الزّاهِدينَ العابِدينَ. كانَتْ تَعْرِفُ مَدى هُيامِهِ بِها، وهُوَ

هُيامٌ يُعْجِزُهُ عَنْ أَنْ يَرْفُضَ أَيَّ طَلَبٍ لَها. وبِالفِعْلِ وَعَدَها بِأَنَّ هَذِهِ الزِّيارَةَ سَتَتِمُّ فيما بَعْدُ بإِذْنِ اللهِ.

وكانَ الخَوْفُ يُعَشِّشُ في رَأْسِ العَجوزِ مِنْ أَنْ يَمُرَّ الشَّهْرُ دونَ أَنْ تُنفِّذَ أَمْرَ الحَجّاجِ فَتَفْقِدَ الهِبَةَ الذَّهَبِيَّةَ، ورُبَّما كَسَبَتْ بَطْشَهَ الَّذي أصابَ الكَثيرينَ. ولِذَلِكَ سارَعَتْ إلى الدّارِ بَعْدَ خُروجِ يوسُفَ مِنْها في اليَوْمِ التّالي مُباشَرَةً، ولَـمّا عَلِمَتْ مِنْ نَسْمَةَ بِما كانَ مِنْ جَوابِهِ لَها شَخْصِيًّا، طَلَبَتْ مِنْها أنْ تَخْرُجَ مَعَها في تِلْكَ السّاعَةِ عَلى أَنْ يَرْجِعا إلى المَنْزِلِ قَبْلَ عَوْدَتِه. وبِنَفْسِ اللَّهْفَةِ أَلَحَّتْ نَسْمَةُ عَلى حَماتِها بِأَنْ تَسْمَحَ لَها بِالخُروجِ مَعَ العَجوزِ الصّالحَةِ لِلتَّبَرُّكِ بِبَعْضِ أَوْلياءِ الله، والرُّجوعِ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ مَجيئِهِ، خاصَّةً أَنَّهُ لَمْ يَصُدَّها عِنْدَما رَجَتْهُ. وعِنْدَما عَبَّرَتْ أُمُّ يوسُفَ عَنْ خَشْيَتِها مِنْ أَنْ يَحْضُرَ فَلا يَجِدُها، أَكَّدَتْ لَها قَهْرَمانَةُ بِأَنَّ هَذا لَنْ يَحْدُثَ عَلى الإِطْلاقِ؛ لأَنَّها وَضَعَتْ كُلَّ الاحْتِمالاتِ في حُسْبانِها.

وقَدْ كانَتْ صادِقَةً في آخِرِ جُمْلَةٍ مِنْ حَديثِها.

أصَرَّتْ أُمُّ يوسُفَ عَلى الرَّفْضِ، لَكِنَّهُما ظَلَّتا تُلِحّانِ عَلَيْها وتَتَوسَّلانِ إلَيْها، وخَوْفًا مِنْ إضاعَةِ الوَقْتِ، قَبِلَتْ عَلى مَضَضٍ. وبِمُجَرَّدِ أَنْ خَرَجَتْ نسْمَةُ مِنَ الدّارِ مَعَ العَجوزِ تَوَجَّهَتْ بِها إلى قَصْرِ الحَجّاجِ، فَلَمْ تَكُنْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ عَلى دِرايَةٍ بِشَوارِعِ الكوفَةِ وطُرُقاتِها، بَلْ إنَّها ظَنَّتْ أَنَّها دَخَلَتْ قَصْرَ أَحَدِ أَوْلِياءِ الله، وإنْ كانَتْ قَدْ دَهِشَتْ لِفَخامَتِهِ، وقَهْرمانَةُ تَقودُها إلى مَقصورَةٍ جانِبِيَّةٍ فيهِ، حَيْثُ تَرَكَتْها لِتُعَرِّفَ الحَجّاجَ بِمَجيئِها. فَقامَ مُنْتَعِشًا، يَسْبِقُهُ شَوْقُهُ لِرُؤْيَةِ المَخْلوقَةِ السّاحِرَةِ الَّتي سَمِعَ عَنْها مِنْ قَبْلُ.

دَخَلَ الحَجّاجُ على نَسْمَةَ في مَقْصورَتِها، فَذَهِلَ لِوَميضِ عَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ الواسِعَتَيْنِ، وبَياضِ وَجْهِها المُشَرَّبِ بِحُمْرَةِ التُّفّاحِ، لَكِنَّها سَرْعانَ ما سَتَرَتْ وَجْهَها بِمُجَرَّدِ أَنْ رَأَتْهُ، وهِيَ تَسْأَلُ قَهْرمانَةَ في لَهْفَةٍ مَحْمومَةٍ:

«مَنْ يَكونُ هَذا؟ وأَيْنَ المَشايِخُ الزُّهّادُ وأَوْلِياءُ الله الصّالِحونَ؟ أينَ أنا أَيَّتُها العَجوزُ الصّالِحَةُ؟»

لَمْ تُجِبِ العَجوزُ ووَقَفَتْ صامِتَةً صَمْتَ القُبورِ، في حينِ قالَ الحجّاجُ لِنَفْسِهِ إنَّ هَذِهِ الجارِيَةَ لَأَجْمَلُ كَثيرًا مِمّا سَمِعْتُ. ثُمَّ خَرَجَ مُسْرِعًا إلى ديوانِ قَصْرِهِ لِيُصْدِرَ أوامِرَهُ لخَمْسينَ فارِسًا لِيَحْمِلوها إلى دِمَشْقَ فَوْرًا، ويَقوموا هُناكَ بِتَسْليمِها إلى الخَليفَةِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ، وكَتَبَ كِتابًا بِذَلِكَ إِلَيْهِ.

وأَدْرَكَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ الفَخَّ الَّذي وَقَعَتْ فيهِ بِلا رَحْمَةٍ، فاسْتَعْطَفَتِ العَجوزَ كَيْ تُعيدَها إلى بَيْتِها، لَكِنِ العَجوزُ أَسْكَتَتْها بِلَطْمَةٍ كَالسَّوْطِ عَلى وَجْهِها، فَلَمْ تَمْلِكْ سِوى البُكاءِ المريرِ في صَلاةٍ صامِتَةٍ كي يَرْأَفَ اللهُ بِحالِها ويُخْرِجَها مِنْ هَذا الكابوسِ.

ولَمْ يَمْضِ سِوى وَقْتٍ قَصيرٍ، حَتّى كانَتْ نَسمَةُ الرَّبيعِ مَحْمولَةً في هَوْدَجٍ يَحْرُسُهُ خَمْسونَ فارِسًا. وكانَتْ رُؤوسُ المارَّةِ تَشْرَئِبُّ لَعَلَّها تَعرِفُ أَوْ تُخَمِّنُ الشَّخْصَ المَحْمولَ داخِلَ الهَوْدَجِ، والمَقْصِدَ الَّذي سَيَبْلُغُهُ في

نِهايَةِ مَسيرَتِهِ المجْهولَةِ الغامِضَةِ الخَفِيَّةِ.

-٣-

رَجَعَ يوسُفُ بنُ الرَّبيعِ إلى دارِهِ، وبِمُجَرَّدِ دُخولِهِ نادى زَوْجَتَهُ وَحَبيبَةَ عُمْرِهِ. ولمّا لَمْ تُجِبْهُ هُرِعَ مُسْرعًا في لَهْفةٍ، وأَخَذَ يَسْأَلُ عَنْها كُلَّ مَنْ في الدّار، إلى أَنْ وَجَدَ أُمَّهُ جالِسَةً ويَدُها على خَدِّها، فَسَأَلَها عَنْ نَسْمَةِ الرَّبيع زَوْجَتِهِ فأَجابَتْهُ والحَرَجُ يَكادُ يَقْتُلُها ويُلْجِمُ لِسانَها المتَعَثِّرَ: «يا بُنَيَّ، إنَّها مَعَ مَنْ هِيَ أَشْفَقُ مِنّي عَلَيْها، وهِيَ العَجوزُ الصّالحَةُ، وقَدْ خَرَجَتْ مَعَها لِتَزورَ بَعْضَ أَوْلِياء اللهِ الصّالحينَ، ولا بُدَّ أَنَّها الآنَ في طَريقِ العَوْدَةِ مُحَمَّلَةٌ بِكُلِّ البَرَكاتِ!»

كانَتْ لَهْفَةُ يُوسُفَ أَقْسى وأَثْقَلَ مِنْ أَنْ تُحْتَمَلَ وهُوَ يُواصِلُ تَساؤُلَهُ: «ومَتى كانَ خُروجُهُما مِنَ البَيْتِ؟»

«خَرَجَتا في بُكْرَةِ النَّهارِ.»

«لِمَ أَذِنْت لَها بِذَلِكَ؟»

«لَقَدْ صَرَّحْتَ لَها أَنْتَ بِذَلِكَ. كما أَنَّهُما أَلَحَّتا عَلَيَّ في ذَلِكَ كَثيرًا، ولَمْ أَجِدْ غَضاضَةً في قِيامِهِما بِهَذِهِ الزِّياراتِ المُبارَكَةِ!»

سَرَتْ في وِجْدانِهِ مَخاوِفُ لا حَصْرَ لَها وراحَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ، ثُمَّ انْطَلَقَ خارِجًا مِنْ بَيْتِهِ كَسَهْمٍ طائِشٍ لا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ مَقْصِدًا، إلى أَنْ هَداهُ تَفْكيرُهُ بِالتَّوَجُّهِ إلى صاحِبِ الشُّرْطَةِ الَّذي اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ لا تَفوتُهُ شارِدَةٌ وَلا وارِدَةٌ مِنْ خَبايا الكوفَةِ. وقَصَّ عَلَيْهِ تَفاصيلَ ما جَرى، وأَوْصافَ العَجوزِ بِرَغْمِ شُهْرَتِها في المدينَةِ، فَما كانَ مِنْ صاحِبِ الشُّرْطَةِ سِوى أَنْ قالَ لَهُ «دُلَّني عَلى العَجوزِ وأَنا أَرُدُّ إِلَيْكَ جارِيَتَكَ!»

«قُلْتُ لَكَ إِنَّها أَصْبَحَتْ زَوْجَتي، كَما أَنَّني أَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَدُلَّني أَنْتَ عَلى العَجوزِ، فَأَنا لا أَعْرِفُ مَنْ هِيَ ولا أَيْنَ تُقيمُ!»

«لا يَعْرِفُ الغَيْبَ إلا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى. ومَعَ ذَلِكَ

سَأَبُثُّ عُيوني في كُلِّ مَكانٍ لَعَلَّنا نَعْثُرُ عَلَيْها. ورُبَّما عادَتْ إِلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ.»

«قَلْبي يُحَدِّثُني بِأَشْياءَ مُرْعِبَةٍ. وما أَطْلُبُ زَوْجَتي إلا مِنْكَ، فَأَنْتَ المَسئولُ الأَوَّلُ وبَيْني وبَيْنَكَ الحَجّاجُ! وإذا لَمْ يُسْعِفْني الحَجّاجُ، فَسَوْفَ أُسافِرُ إلى دِمَشْق لأُقَدِّمَ شَكْوايَ إلى أَميرِ المُؤْمِنين شَخْصِيًّا!»

ظَلَّ صاحِبُ الشُّرْطَةِ عَلى هُدوئِهِ في حينِ نَضَحَتْ نَظَراتُهُ بِخُبْثٍ دفينٍ، فَقَدْ كانَ عَلى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ العَجوزَ فَعَلَتْ ذَلِكَ بِأَمْرٍ مِنَ الحَجّاجِ. سَأَلَه يُوسُفُ وهُوَ يَسْتَديرُ خارِجًا: «هِيهْ! ماذا قُلْتَ؟»

أَجابَ بِنَفْسِ الهُدوءِ والخُبْثِ: «قُلْتُ: امْضِ إلى مَنْ شِئْتَ!»

وانْطَلَقَ يُوسُفُ إلى قَصْرِ الحَجّاجِ الَّذي كَثيرًا ما دَخَلَهُ مَعَ أَبيهِ في الاحْتِفالاتِ الَّتي كانَ يُقيمُها لأَكابِرِ أَهْلِ الكوفَةِ، فَلَمّا بَلَغَ القَصْرَ عَرَفَهُ الحاجِبُ وأَدْخَلَهُ عَلى

الحَجّاجِ الَّذي سَأَلَهُ في لَهْفَةٍ فَوْرِيَّةٍ مُريبَةٍ: «ماذا تُريدُ؟» فَقَصَّ عَلَيْهِ تَفاصيلَ ما جَرى والحَجّاجُ يُبْدي انْدِهاشَهُ بَلْ وذُهولَهُ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ. ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضارِ صاحِبِ الشُّرْطَةِ وأَمَرَهُ بِأَنْ يَبْحَثَ عَنْ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، وأَنْ يَبُثَّ كُلَّ رِجالِهُ وعُيونِهِ في الطُّرُقاتِ والأَزِقَّةِ والبُلْدانِ بَلْ وفي البُيوتِ والدّورِ الَّتي يُحْتَمَلُ أَنْ تكونَ قَدِ اخْتُطِفَتْ إِلَيْها، ثُمَّ التَفَتَ إلى يوسُفَ وقالَ لَهُ في حَنانٍ زائِدٍ ورِقَّةٍ لَيْسَتْ مِنْ طَبْعِهِ: «إِنْ لَمْ تَرْجِعْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ إِلَيْكَ، فَأَنا أُعْطيكَ عَشْرَ جَوارٍ مِنْ داري وعَشْر جَوارٍ مِنْ دارِ صاحِبِ الشُّرْطَةِ.»

لَمْ يَسْتَطِعْ يوسُفُ أَنْ يُغالِبَ الدُّموعَ وهُوَ يَقولُ: «إِنَّها لَمْ تَعُدْ جارِيَتي بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجْتُها عَلى سُنَّةِ اللهِ ورَسولِهِ. وكُلُّ نِساءِ العالَمِ لا يُمْكِنُهُنَّ أَنْ تُعَوِّضْنَني عَنْها، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَصَوَّرَ حَياتي بِدونِها.»

وعادَ إلى بَيْتِهِ لِيُغْلِقَ على نَفْسِهِ مَقْصورَتَهُ، لِيَبْكِيَ

ويَنْتَحِبَ ما شاءَ لَهُ البُكاءُ والنَّحيبُ، لَكِنَّ أباهُ لَمْ يَتْرُكْهُ في هَذِهِ الحالِ، فَفَتَحَ البابَ ودَخَلَ لِيَجْلِسَ إِلَيْهِ ويَحْتَوِيَهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ مُرَبِّتًا ظَهْرَهُ قائِلًا: «يا وَلَدي، لَقَدِ احْتالَ الحَجّاجُ لِيَأْخُذَ مِنْكَ زَوْجَتَكَ، فَأَنا أَدْرى بِدَهائِهِ وخُبْثِهِ المَسْموم. تَمسَّكْ بِإيمانِكَ ولا تَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ الله، فَمِنْ ساعَةٍ إِلَى ساعَةٍ يَأْتي اللهُ بِالفَرَجِ مِنْ عِنْدِهِ.»

لَكِنَّ وَطْأَةَ الهُمومِ اشْتَدَّتْ عَلى يوسُفَ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ صارَ لا يَدْري ما يَقولُ، ولا يَعْرِفُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهُ.

وأَحْضَرَ لَهُ أَبوهُ أَبْرَعَ الأَطِبّاءِ، فاتَّفَقوا جميعًا عَلى أَنَّ دَواءَهُ الوَحيدَ هُوَ عَوْدَةُ زَوْجَتِهِ الَّتي بِدونِها أَصْبَحَتْ حَياتُهُ جَحيمًا يَعيشُهُ في كُلِّ لحظَةٍ.

-٤-

عِنْدَما بَلَغَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ قَصْرَ الخَليفَةِ في دِمَشْقَ، أَمَرَ بِأَنْ تُوضَعَ وَحْدَها في إِحْدى المَقاصيرِ (الحُجُراتِ الخاصَّةِ)، ويُقَدَّمَ لَها كُلُّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ. وكانَتْ نَشْوَتُهُ بِجَمالِها وسِحْرِها لا

تُوصَفُ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ أَسْرَعَ إلى زَوْجَتِهِ وقالَ لَها: «إنَّ الحَجّاجَ اشْتَرى لي جارِيَةً مِنْ سُلالَةِ المُلوكِ بِعَشَرَةِ آلافِ دينارٍ! لَنْ أَصِفَها لَكِ؛ إذْ لا بُدَّ أَنْ تُشاهِديها بِنَفْسِك! فَهِيَ أَجْمَلُ وأَرْوَعُ مِنْ أَيِّ وَصْفٍ!»

قالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ دونَ أَنْ تَنْظُرَ في عَيْنَيْهِ: «زادَكَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ!»

ثُمَّ أَرْسَلَ الخَليفَةُ أُخْتَهُ زُمُرُّدَةَ لِمُشاهَدَةِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، فَلَمّا وَقَعَتْ عَيْناها عَلَيْها، لَمْ تَتمالَكْ أَنْ تَشْهَقَ وهيَ تَقولُ لَها: «واللهِ ما خابَ مَنْ أَنْتِ في قَصْرِهِ ولَوْ كانَ ثَمَنُكِ مائَةَ أَلْفِ دينارٍ؛ فَأَنْتِ اسْمٌ عَلى مُسَمّى!»

ولأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ مَجيئِها المَشْئومِ، أَحَسَّتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ بِبَرْدِ الرّاحَةِ يَسْري في صَدْرِها، وسَأَلَتْها بِلا حَرَجٍ أَو تَرَدُّدٍ: «يا صَبيحَةَ الوَجْهِ، لِمَنْ هَذا القَصْرُ، وفي أَيَّةِ مَدينَةٍ هُوَ؟»

أَجابَتْها زُمُرُّدَةُ بِابْتِسامَةٍ مُضيئَةٍ: «هَذِهِ مَدينَةُ دِمَشْقَ،

وهَذا قَصْرُ أَخي، وهُوَ الخَليفَةُ عَبْدُ المَلِكَ بنُ مَرْوانَ. يَبْدو أَنَّكِ لا تَعْلَمينَ شَيئًا، خاصَّةً عَنِ الَّذي باعَكِ وقَبَضَ ثَمَنَكِ عَشَرَةَ آلافِ دينارٍ؟»

لَمْ تُصَدِّقْ نَسْمَةُ هَذِهِ الكَلِمات الَّتي لَطَمَتْ مَسامِعَها، وانْهَمَرَتْ دُموعُها مِدْرارًا، وقالَتْ لِنَفْسِها: «لَقَدْ تَمَّتِ الحيلَةُ عَلَيَّ. ولَو قُلْتُ الآنَ مَنْ أكونُ أنا، وزَوْجَةُ مَنْ، وأَنَّني لَمْ أَعُدْ جارِيَةً، ما صَدَّقني أَحَدٌ ولَيْسَ لي إلا أَنْ أَصْبِرَ واثِقَةً بِأنَّ فَرَجَ اللهِ قَريبٌ. فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ هِيَ الكَلِماتِ المُفَضَّلَةَ عِنْدَ والِدِ يوسُفَ والَّتي أَشْعُرُ أَنَّها الحَبْلُ المَتينُ الَّذي سَيُنْقِذني منَ الغَرَقِ.»

احْتَوَتْها زُمُرُّدَةُ في حِضْنِها وهيَ تَسْأَلُها في عُذوبَةٍ: «فيمَ شُرودُكِ ودُموعُكِ؟»

أَطْرَقَتْ حَياءً، فَأمَرَتْ زُمُرُّدَةُ إحْدى الجَواري بِإحْضارِ أَفْخَرِ الملابِسِ، وأَنْدَرِ الجَواهِرِ، ثُمَّ ساعَدَتْها على ارْتدائِها بَعْدَ أنْ مَسَحَتْ دُموعَها، فَبَدَتْ كَدُرَّةٍ يَتيمَةٍ في جَبينِ

القَصْرِ المَرْمَرِيِّ. وبَعْدَ ذَلِكَ جاءَ الخَليفَةُ فَجَلَسَ بِجانِبِها مُرَحِّبًا بِها في حينِ قالَتْ لَهُ أُخْتُهُ إِنَّ هَذِهِ الجارِيَةِ آيَةٌ مِنْ آياتِ الحُسْنِ والأَدَبِ، سَتَمْسَحُ عَنْهُ كُلَّ هُمومِ الحُكْمِ وأَثْقالِ المَسْئولِيَّةِ.

ضَحِكَ الخَليفَةُ ضِحْكَةَ طِفْلٍ حَصَلَ عَلى لُعْبَةٍ لَمْ يَتَوَقَّعْها: «ولماذا لا تَرْفَعُ الخِمارَ عَنْ وَجْهِها؟»

أَجابَتْ زُمُرُّدَةُ باسِمَةً: «ذَلِكَ مِنْ فَرْطِ حَيائِها وأَدَبِها!»

وخَرَجَ مِنْ عِنْدَها، وبَقِيَتْ مَعَها أُخْتُهُ تُؤانِسُها، في حينِ ظَلَّتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ ساهِمَةً، مُفَكِّرَةً، مُتَحَسِّرَةً، ضائعَةً، لافْتِراقِها عَنْ زَوْجِها وحَبيبِ عُمْرِها يوسُفَ. لَمْ تَكُنْ صورَتُهُ تُفارِقُ مُخَيِّلَتَها لحظَةً واحدَةً، في حينِ كانَ النَّدَمُ يَضْرِبُها بِسِياطٍ مِنْ نارٍ كُلَّما تَذَكَّرَتْ إلحاحَها عَلى أُمِّه كَيْ تَسْمَحَ لَها بِالذَّهابِ بِلا رَجْعَةٍ مَعَ تِلْكَ الشَّيْطانَةِ اللَّعينَةِ الَّتي تَدَّعي التَّقْوى والوَرَعَ.

لَمْ تَحْتَمِلْ نَسْمَةُ وطْأَةَ النّارِ المُتَأَجِّجَةِ داخِلَها، وَلَفَحَ

لَهيبِها الَّذي كادَ يَحْرِقُها، فَوَقَعَتْ صَريعَةَ الحُمّى، وذَبَلَتْ بِرَغْمِ سُخونَةِ الحَرارَةِ الَّتي غَطَّتْ وَجْهَها بِالحُمْرَةِ، وعَجَزَت عَنْ تَناوُلِ أيِّ طَعامٍ أو حَتّى شُرْبِ الماءِ الَّذي كانوا يَقْطِرونَهُ في فَمِها حَتّى لا يَقْتُلَها الجَفافُ. وانْطَفَأَ الوَميضُ السّاحِرُ في عَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ الواسِعَتَيْنِ، ونَحُلَ عودُها فَبَدَتْ هَيْكَلًا عَظْمِيًّا في ثِيابِها الحَريرِيَّةِ البَيْضاءِ.

ولَمّا عَلِمَ الخَليفَةُ بِذَلِكَ، حَزِنَ حُزْنًا بالِغًا، وأَمَرَ بِإِحْضارِ أَكْبَرِ الأَطِبّاءِ وأَهْلِ البَصائِرِ مِنْ أَيَّةِ مَدينَةٍ مِنْ مُدُنِ الخِلافَةِ الأُمَوِيَّةِ مَهْما تَكُنْ نائِيَةً. وتَوالَى وُصولُهُمْ مِنَ الأَطْرافِ البَعيدَةِ، لِيَبْذُلوا أَقْصى ما في وُسْعِهِمْ مِنْ عِلْمٍ وخِبْرَةٍ، لَكِنْ لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلى سِرِّ مَرَضِها لأَنَّها لَمْ تَمْتَنِعْ عَنِ الغِذاءِ والطَّعامِ فَحَسْبُ، بَلْ عَنِ الكَلامِ أَيْضًا، فَقَدْ فَقَدَتِ الرَّغْبَةَ في الحياةِ نَفْسِها، إلى أَنْ جاءَها رِضْوانُ الطَّبيبُ الَّذي ذاعَ صيتُهُ في أَرْجاءِ الخِلافَةِ، فَأَقامَ في دِمَشْقَ تَنْفيذًا لأَوامِرِ الخَليفَةِ الَّذي أرادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِعِلْمِهِ وخِبْرَتِهِ في عِلاجِ أَفْرادِ أُسْرَتِهِ، وإِنْ كانَ

يَأْذَنُ لَهُ مِنْ حينٍ لآخَرَ لِزيارَة وَطَنِهِ مِصْرَ. وكانَ قَدْ عُرِفَ في بِدايَةِ إقامَتِهِ باسْمِ «رِضْوان المِصْرِيّ»، وعِنْدَما طَغَتْ شُهْرَتُهُ كَطَبيبٍ يَعْرِفُ أَسْرارَ الطِّبِّ الفِرْعَوْنِيِّ القَديمِ، أَصْبَحَ مَعْروفًا بِلَقَبِ «رِضْوان الطَّبيب». وكان قَدْ سَمِعَ بِمَرَضِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، لَكِنَّ كِبْرياءَهُ مَنَعَتْهُ مِنْ أَنْ يَعودَها مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ، مِثْلَما هُرِعَ إِلَيْها كَثيرٌ مِنَ الأَطِبّاءِ، بَلِ انْتَظَرَ حَتّى تَتِمَّ دَعْوَتُهُ أَوِ اسْتِدْعاؤُهُ رَسْمِيًّا، وكانَ واثِقًا مِنْ هَذا الاسْتِدْعاءِ بَعْدَ أَنْ تَكاثَرَ قُدومُ الأَطِبّاءِ بِلا جَدْوى.

وكانَ أَوَّلَ طَبيبٍ يَنْجَحُ في جَعْلِ نَسْمَةَ الرَّبيعِ تَفْتَحُ قَلْبَها لَهُ تَمامًا، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ بِخِبْرَتِهِ أَنَّها لا تُعاني أَيَّ مَرَضٍ في جَسَدِها. فَقَدِ اسْتَطاعَ أَنْ يَكْسِبَ ثِقَتَها عِنْدَما اطْمَأَنَّتْ إِلى أُبُوَّتِهِ الحانِيَةِ، وإِصْرارِهِ عَلى أَنَّ الطِّبَّ رِسالَةٌ إِنْسانِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنْهُ مُجَرَّدَ مِهْنَةٍ لِلارْتِزاقِ. وفي نِهايَةِ جَلْسَتِهِ الثّالِثَةِ مَعَها وَعَدَها أَنَّه سَيُسافِرُ إِلى الكوفَةِ لِكَيْ يَعودَ إِلَيْها

ومَعَهُ دَواؤُها الوَحيدُ، بِشَرْطِ أَنْ تَعودَ هيَ إلى حَياتِها الطَّبيعِيَّةِ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ، ولَكِنْ في حُدودٍ حَتّى لا يَعودَ إلَيْها جَمالُها الطّاغي، فَيَطْمَعَ فيها الخَليفَةُ الَّذي لَنْ يُصَدِّقَ أَنَّها زَوْجَةٌ حُرَّةٌ ولَيْسَتْ مُجَرَّدَ جارِيَةٍ تُباعُ وتُشْتَرى.

وسَمَحَ لَهُ الخَليفَةُ بِالسَّفَرِ إلى الكوفَةِ عَلى أَنْ يَعودَ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ إلى دِمَشْقَ، طالَما أَنَّهُ وَعَدَهُ بِعِلاجِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ بِالدَّواءِ مِنْ هُناكَ. لَكِنْ لَمْ يَفُتْ عَلى الخَليفَةِ سُؤالُ رِضْوانَ الطَّبيبِ عَنِ السِّرِّ في الذَّهابِ إلى الكوفَةِ بِالذّاتِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّها في حاجَةٍ مُلِحَّةٍ لِتَوْليفَةٍ مِنْ عِدَّةِ أَعْشابٍ، لا يَعْرِفُ سِرَّ خَلْطَتِها وتَرْكيبِها سِوى عَطّارٍ بَلَغَ مِنَ العُمْرِ أَرْذَلَهُ، ويُريدُ أَنْ يُهْرَعَ لِلِقائِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ إلى الأَبَدِ.

وأَصَرَّ الخَليفَةُ عَلى إرْسالِ قافِلَةٍ صَغيرَةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ ثَلاثينَ جُنْدِيًّا مَعَ رِضْوانَ الطَّبيبِ الَّذي أَدْرَكَ عَلى الفَوْرِ

أَنَّهُمْ عُيونٌ عَلَيْهِ لِرَصْدِ تَحَرُّكاتِهِ وسَكَناتِهِ، ومَعْرِفَةِ حَقيقَةِ مُهِمَّتِهِ في الكوفَةِ؛ إِذْ لا يُعْقَلُ أَنْ يكونَ فيها دَواءٌ يَسْتَحيلُ أَنْ يَجِدَهُ في دِمَشْقَ الفَيْحاءِ عاصِمَةِ الخِلافَةِ الأُمَوِيَّةِ. لَكِنَّ عَبْقَرِيَّةَ رِضْوانَ الطَّبيبِ سَواءٌ في الطِّبِّ أَوِ الحِكْمَةِ كانَتْ عَميقَةَ الأَغْوارِ وبَعيدَةَ الآفاقِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تَبْتَلِعَ جَيْشًا بِأَكْمَلِهِ ولَيْسَ مُجَرَّدَ ثَلاثينَ جُنْدِيًّا. فَقَدْ نَسِيَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ أَنَّ رِضْوانَ الطَّبيبَ جاءَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ الَّتي ابْتَلَعَتْ صَحْراؤُها جَيْشَ قَمْبيزَ مَلِكِ الفُرْسِ.

- ٥ -

لَمْ تَكُنِ الرِّحْلَةُ مِنْ دِمَشْقَ إِلى الكوفَةِ مُجْهِدَةً، لَكِنَّ رِضْوانَ الطَّبيبَ انْتَهَزَها فُرْصَةً لِكَيْ يَخْلُوَ إِلَى نَفْسِهِ، ويُخَطِّطَ لِمُهِمَّتِهِ الخَطيرَةِ بِذَكاءٍ بَلْ ودَهاءٍ، لأَنَّهُ يَعْرِفُ جَيِّدًا العِقابَ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَهُ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ لِكُلِّ مَنْ يَتَصَوَّرُ في نَفْسِهِ القُدْرَةَ على أَنْ يَسْتَهينَ بِذَكائِهِ. كانَ رِضْوانُ يَتَصَفَّحُ بِعَيْنَيْهِ كُلَّ المَحالِّ والدَّكاكينِ الواقِعَةِ على

جانِبَي الطَّريقِ الَّذي شَقَّتْهُ القافِلَةُ إلى قَلْبِ الكوفَةِ، وقَدْ نَضَحَتِ الحَيْرَةُ والقَلَقُ مِنْ وَميضِ عَيْنَيْهِ، إلى أَنْ حَلَّتْ مَحَلَّهُما ابْتِسامَةٌ عَريضَةٌ افْتَرَشَتْ وَجْهَهَ، وفي الحال أَمَرَ القافِلَةَ بِالتَّوَقُّفِ.

تَوَقَّفَتِ القافِلَةُ أَمامَ دُكّانٍ لِلْعِطارَةِ، جَلَسَ أمامَهُ صاحِبُهُ المُسِنّ بِلِحْيَتِهِ البَيْضاءِ النّاصِعَةِ، والَّذي انْتَفَضَ واقِفًا بِمُجَرَّدِ هُبوطِ رِضْوانَ مِنْ هَوْدَجِهِ وتَقَدُّمِهِ مِنْهُ لِيَشُدَّ على يَدِهِ بِحَرارَةٍ كَأَنَّهُ صَديقٌ قَديمٌ، فَعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَهُ لَكِنَّها لَمْ تَمْنَعْهُ مِنَ التَّرْحيبِ الحارِّ بِهِ، في حينِ اسْتَدْرَجَهُ رِضْوانُ إلى داخِلِ الدُّكّانِ، وعُيونُ الجُنودِ الرّاصِدَةُ تَتَبادَلُ النَّظَراتِ الفاحِصَةِ والرّاضِيَةِ في الوَقْتِ نَفْسِهِ.

أَخْرَجَ رِضْوانُ مِنْ داخِلِ عَباءَتِهِ وَرَقَةً قَدَّمَها لِلرَّجُلِ، ومَعَها ثَلاثونَ دينارًا مِنْ ذَهَبٍ. قَرَأَ الشَّيْخُ بِعَيْنَيْهِ الواهِنَتَيْنِ ما في الورَقَةِ ثُمَّ قالَ لِرِضْوانَ: «هَذِهِ التَّرْكيبَةُ بَسيطَةٌ ولا تَسْتَحِقُّ هَذا المَبْلَغَ الكَبيرَ أَبَدًا.»



لَمْ يَمْنَعْ رِضْوانُ نَفْسَه مِنْ ضِحْكَةٍ صافِيَةٍ، وقالَ: «إِنَّهُ تَقْديرٌ لِخِبْرَتِكَ الطَّويلَةِ العَريضَةِ في فُنونِ العِطارَةِ الطِّبِّيَّةِ، بِالإِضافَةِ إِلى اسْتِشارَةٍ بِخُصوصِ عُنْوانِ بَيْتِ صَديقٍ قَديمٍ دَعاني لِزِيارَتِهِ، ولا أُريدُ أَنْ أُهْدِرُ النَّهارَ في مَتاهاتِ دُروبِ الكوفَةِ.»

«المَسْأَلَةُ لَيْسَتْ فيها مَتاهاتٌ عَلى الإِطْلاقِ! فأَنا أَحْفَظُ أَحْياءَ الكوفَةِ وطُرُقاتِها مِثْلَ خُطوطِ كَفّي.» ما اسْمُ صَديقِكَ؟»

أَلْقى رِضْوانُ بِنَظْرَةٍ إِلى خارِجِ الدُّكّانِ، فَوَجَدَ الجُنودَ قَدْ نَزلوا عَنْ خُيولِهِمْ واسْتَرْخَوْا عَلى كُتَلٍ حَجَرِيَّةٍ عَلى جانِبِ الطَّريقِ. حينَئِذٍ قالَ: «اسْمُهُ الرَّبيعُ بنُ حاتِمٍ.»

«ونِعْمَ الصَّديقُ! إِنَّ دارَهُ تَقَعُ عِنْدَ نِهايَةِ هَذا الشّارِعِ عَنِ اليَمينِ، وتُطِلُّ في الوَقْتِ نَفْسِهِ عَلى البَساتينِ والحُقولِ التي تُحيطُ بِالمدينَةِ. إِنَّ دارَهُ أَشْهَرُ مِن نارٍ على عَلَمٍ!»

«جَزاكَ اللهُ كُلَّ خَيْرٍ.»

«في اسْتِطاعَتي أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ هذِهِ التَّرْكيبَةِ في نِصْفِ ساعَةٍ، فَتأْخُذَها مَعَكَ الآنَ.»

«أَنا لَسْتُ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْري. سَأَمُرُّ عَلَيْكَ غَدًا.»

«وأنا رَهْنُ إشارَتِكَ.»

خَرَجَ رِضْوانُ لِيَأْمُرَ الجُنودَ بِالذَّهابِ إلى فُنْدُقٍ لِقَضاءِ لَيْلَتَيْنِ بِهِ، لحينِ الانْتِهاءِ مِنَ التَّرْكيبَةِ الطِّبِّيَّةِ، عَلى أَنْ تكونَ القافِلَةُ جاهِزَةً لِلرَّحيلِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنْ نَفْسِ المَكانِ، أَيْ أَمامَ دُكّانِ العَطّارِ. أَمّا هُوَ فَسَيَقْضي اللَّيْلَتَيْنِ عِنْدَ صَديقٍ لَهُ في الشّارِعِ نَفْسِهِ، لَمْ يَرَهُ مُنْذُ عَشَرَةِ أَعْوامٍ.

أَدّى الجُنودُ التَّحِيَّةَ وغادَروا المَكانَ، فَقَدْ كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَسيرُ بِناءً عَلى الأَوامِرِ الَّتي لَدَيْهِمْ، ولَمْ يَعُدْ هُناكَ ما يُثيرُ الشَّكَّ أَوِ الرِّيبَةَ، بِالإضافَةِ إلى رَغْبَتِهِم المُلِحَّةِ في قَضاءِ يَوْمَيْنِ إجازَةً لِلرّاحَةِ والاسْتِجْمامِ والتَّمَتُّعِ بِأطايِبِ الطَّعامِ.

ظَلَّ رِضْوانُ يُراقِبُ مِنْ مَكانِهِ تَحَرُّكَ القافِلَةِ إلى أَنِ

انْحَنَى الشّارِعُ بِها فَاخْتَفَتْ، لِيَشُقَّ طَرِيقَهُ إِلى دارِ الرَّبيعِ ابْنِ حاتِمِ الَّتي بَلَغَها كَأَنَّهُ يَعْرِفُ مَوْقِعَها مِنْ قَبْلُ. فُتِحَ البابُ عَلَى دَقّاتِهِ، وعِنْدَما قَدَّمَ نَفْسَه إلى البَوّابِ، اِسْتَأْذَنَهُ في لَحظاتٍ، جاءَ بَعْدَها الرَّبيعُ بنُ حاتِمٍ لِيُرَحِّبَ بِهِ في دَهْشَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ إِخْفاءَها وهُوَ يَصْطَحِبُهُ إلى قاعَةِ الضُّيوفِ، حَيْثُ جَلَسا لِيَقولَ الرَّبيعُ في تَساؤُلٍ حَرِجٍ:

«هَلْ لي أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ نَما إلى عِلْمِكَ أَنَّ ابْنَنا مَريضٌ؟» هَلْ أَخْبَرَكَ أَحَدٌ مِنَ الأَطِبّاء الَّذين زاروهُ ولَمْ يَهْتَدوا إلى عِلاجٍ ناجِعٍ لَهُ؟ فَنَحْنُ لَمْ نَتْرُكْ طَبيبًا في الكوفَةِ إلا وطَلَبْناهُ!»

ضَحِكَ رِضْوانُ ضِحْكَتَهُ الصّافِيَةَ لِيُزيلَ أَيَّ حَرَجٍ، وقالَ: «ولماذا لا تَقولُ إِنَّني مَكْشوفٌ عَنّي الحجابُ؟»

وبادَلَهُ الرَّبيعُ ضِحْكَةً بِضِحْكَةٍ، فَشاعَ جَوٌّ مِنَ التَّفاؤُلِ لَمْ تَعْرِفْهُ الدّارُ مُنْذُ شُهورٍ، وقالَ: «جَعَلَنا اللهُ مِنْ بَرَكاتِكَ!».

سَأَلَ رِضْوانُ: «أَيْنَ يوسُفُ؟ أُريدُ أَنْ أَراهُ فَوْرًا لأَنَّني

لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَبْقى في الكوفَةِ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْنِ.»

«لا بُدَّ مِنْ تَقْديمِ واجِبِ الضِّيافَةِ أَوَّلًا.»

«أرى يوسُفَ أَوّلًا.»

نَهَضَ الرَّبيعُ ومَعَهُ رِضْوانُ لِيَسيرا عَبْرَ رَدْهاتِ الدّارِ حَتّى بَلَغا غُرْفَةَ نَوْمِ يوسُفَ حَيْثُ كانَ مُسْتَلْقِيًا على ظَهْرِهِ شاحِبَ الوَجْهِ، نَحيلَ الجِسْمِ، زائِغَ النَّظَراتِ، مِمّا أَضاعَ



مَلامِحَهُ الوَسيمَةَ وتَقاطيعَهُ الجَميلَةَ الَّتي عَرَفَهُ بِها أَهْلُ الكوفَةِ جَميعًا. وعِنْدَما عَرَفَ يوسُفُ أَنَّهُ طَبيبٌ جَديدٌ في طابورِ الأَطِبّاءِ الَّذين مَرّوا بِهِ، أَشاحَ بِوَجْهِهِ بَعيدًا، وهُوَ يَنْطِقُ بِكَلِماتٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُرْتَعِشَةٍ «لا تُتْعِبْ نَفْسَكَ أَيُّها الطَّبيبُ. إنَّ دَوائي مَعْروفٌ، لَكِنْ لَيْسَ هُناكَ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُحْضِرَهُ لي، سَواءٌ أكانَ طَبيبًا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ. ولَمْ يَعُدْ أمامي سِوى انْتِظارِ مَصيري.»

جَلَسَ رِضْوانُ عَلى حافَةِ الفِراشِ وهُوَ يَقولُ في تَصْميمٍ واضِحٍ: «ومَنْ قالَ لَكَ إِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُحْضِرَهُ لَكَ، أو بِمَعْنًى أَصَحَّ أُحْضِرُكَ أَنْتَ إِلَيْهِ؟»

جَلَسَ يوسُفُ في فِراشِهِ وقَدِ انْحَنى ظَهْرُهُ: «لَمْ أَعُدْ أَثِقُ بِأَحَدٍ بَعْدَ ما فَعَلَتْهُ بِنا تِلْكَ العَجوزُ المُحْتالَةُ قَهْرَمانَةُ!»

أَخْرَجَ رِضْوانُ مِنْ داخِلِ عَباءَتِهِ وَرَقَةً فَتَحَها وقَدَّمَها إِلَيْهِ قائِلًا: «اقْرَإِ المَكْتوبَ في هَذِهِ الوَرَقَةِ وسَتَعودُ ثِقَتُكَ

بِنَفْسِكَ وبِالآخَرِينَ.»

أَمْسَكَ يوسُفُ الوَرَقَةَ بِعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ وأصابعَ مُرْتَعِشَةٍ، وهُوَ يُدَقِّقُ البَصَرَ في المَكْتوبِ ثُمَّ يُحَمْلِقُ وكَأَنَّهُ لا يُصدِّقُ ما شَرَعَ في قِراءَتِهِ:

ولمّا أَبى الواشونَ إلا فِراقَنا
وَلَيْس لَهُمْ عِنْدي وعِنْدَكَ مِنْ ثارِ
وشَنّوا عَلى أسْــماعِنا كُلَّ غارَةٍ
وَقَلَّ حُماتي عِنْدَ ذاكَ وأَنْصاري
غَزَوْتُهُمُ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وأَدْمُعي
ومِنْ مُهْجَتي بِالسَّيْفِ والسَّيْلِ والنّارِ

لَهِجَ لِسانُ يوسُفَ بِكَلِماتٍ كَالحُمَمِ وأَبوهُ يُتابِعُهُ في ذُهولٍ: «إِنَّها الأَبْياتُ المُفَضَّلَةُ عِنْدَ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، والَّتي كَثيرًا ما غَنَّتْها لي بِصَوْتِها السّاحِرِ عَلى العودِ!»

سَأَلَهُ أَبوهُ بِهَمْسٍ مَبْحوحٍ: «هَلْ أَنْتَ واثِقٌ مِمّا تَقولُهُ؟»

«إِنَّهُ خَطُّها الحبيبُ الَّذي لا تُخْطِئُهُ عَيْناي، والَّذي كَتَبَتْ بِهِ أَشْعارَها الَّتي أَحْفَظُها بِقَلْبي وأَحْتَفِظُ بِها في جَيْبي.»

ثُمَّ نَظَرَ إلى رِضْوانَ كَأَنَّهُ تَذكَّرَ شَيْئًا خَطيرًا تاهَ مِنْهُ، وسَأَلَهُ: «مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ، يا سَيِّدي، بِهَذِهِ الوَرَقَةِ الَّتي أَعادَتِ النَّبْضَ إلى قَلْبي مَرَّةً أُخْرى؟ هَلْ قابَلْتَها؟ هَلْ رَأَيْتَها؟ كَيْفَ حالُها؟ هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أَراها؟ أَيْن هِيَ؟ ماذا جَرى لَها؟»

قاطَعَهُ رِضْوانُ بِحَسْمٍ باسِمٍ: «لَكَ الحَقُّ في كُلِّ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ المَحْمومَةِ، لَكِنْ لا وَقْتَ لِلثَّرْثَرَةِ. أنا يا بُنَيَّ الطَّبيبُ الخاصُّ لأَميرِ المؤمِنينَ الخَليفَةِ عَبْدِ المَلِكِ ابْنِ مَروانَ، وبِحُكْمِ وَظيفَتي جاءَتْني جارِيَةٌ عَجوزٌ مِن جَواري القَصْرِ، بِأَوامِرَ مِنَ الخَليفَةِ ومَعَها قارورَةٌ صَغيرة بِها قَطَراتٌ مِنْ دَمٍ لِفَحْصِها بِطَريقَتي الطِّبِّيَّةِ لأَعْرِفَ نَوْعَ المَرَضِ الَّذي يُعانيهِ صاحِبُها. وعِنْدَما تَأَكَّدْتُ مِنْ أَنَّ

هَذا المريضَ لا يُعاني أَيَّ مَرَضٍ، طَلَبْتُ أَنْ أَراهُ حَتَّى أُدْرِكَ كُنْهَ المُشْكِلَةِ: فَأَخْبَرَتْني الجارِيَةُ العَجوزُ الَّتي تُسَمَّى نِعْمَةَ، بِأَنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الحُصولِ عَلى إِذْنٍ بِهَذا اللِّقاءِ مِنْ أَميرِ المؤْمنينَ شَخْصِيّا، لأَنَّ المريضَ هُوَ جارِيَةٌ مِنْ أَقْرَبِ الجَواري إلى قَلْبِهِ.»

صاحَ يوسُفُ فيما يُشْبِهُ الصُّراخَ: «هَلْ أَصْبَحَتْ مِنْ جَواري الخَليفَةِ؟ إِنَّها زَوْجَتي عَلى سُنَّةِ اللهِ ورَسولِهِ!»

«اهْدَأْ بِاللهِ عَلَيْكَ! لَمْ يَمْسَسْها أَحَدٌ، ولا الخَليفَةُ نَفْسُهُ. فَقَدْ سَقَطَتْ مَريضَةً مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ لَها في القَصْرِ، وفَقَدَتْ جَمالَها وسِحْرَها، ومِنْ هُنا كانَتْ لَهْفَةُ الخَليفَةِ لِيَراها في قِمَّةِ صِحَّتِها وعافِيَتِها مَرَّةً أُخْرى.»

«أَلَمْ تَقُلْ لَهُمْ إِنَّها زَوْجَةٌ مِنَ الحَرائِرِ ولَمْ تَعُدْ جارِيَةً؟»

«كُنْتُ أنا الوَحيدَ الَّذي فَتَحَتْ لَهُ قَلْبَها بَعْدَ أَنِ اكْتَسَبْتُ ثِقَتَها، وأَخْبَرَتْني أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَدِّقَها حَتّى إذا أَقْسَمَتْ

لَهُمْ بِأَغْلَظِ الأَيْمانِ، فَلا أَحَدَ يَستَطيعُ أَنْ يَعْتَرِضَ رَغْبَةَ الخَليفَةِ، كَما أَنَّ الحَجّاجَ بنَ يوسُفَ الثَّقَفِيَّ أَرْسَلَها إِلَيْهِ بِصِفَتِها جارِيَةً اشْتَراها لَهُ بِعَشَرَةِ آلافِ دينارٍ. لَكِنَّ إِرادَةَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى فَوْقَ الجميعِ، وكانَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ تَمْرَضَ حَتّى تَعافَها نَفْسُ الخَليفَةِ إِلى أَنْ تَسْتَرِدَّ صِحَّتَها.»

صَمَتَ رِضْوانُ لالْتِقاطِ أَنْفاسِهِ المَبْهورَةِ، فَسأَلَهُ الرَّبيعُ وكُلُّهُ لَهْفَةٌ أَنْ يَلْتَئِمَ شَمْلُ يوسُفَ ونَسْمَةِ الرَّبيعِ: «وما العَمَلُ الآنَ؟»

«أُريدُ مِن ابْنِكَ أَنْ يُسافِرَ مَعي إِلى دِمَشْقَ، وإِنْ شاءَ اللهُ تَعالى لَنْ يَرْجِعَ إِلا بِزَوْجَتِهِ.»

ثُمَّ التَفَتَ رِضْوانُ إِلى يوسُفَ قائِلًا لَهُ: «يا يوسُفُ، اطْمَئِنّ وعِشْ في أَمانِ اللهِ تَعالى، فإِنَّهُ عَمّا قَريبٍ يَجْمَعُ بَيْنَكَ وبَيْنَ زَوْجَتِكَ الحَبيبَةِ.»

دَبَّتِ الحُمْرَةُ الدَّمَوِيَّةُ في وَجْنَتَيْ يوسُفَ فَعادَتْ إِلَيْهِ بَوادِرُ وَسامَتِهِ وجاذِبيَّتِهِ، ومَدَّ ساقَيْهِ لِيَهْبِطَ مِنْ فِراشِهِ

الَّذي لازَمَهُ مُنْذُ أَنْ خُطِفَتْ زَوْجَتُهُ، ورِضوانُ الطَّبيبُ يُواصِلُ حَديثَهُ الَّذي أَعادَهُ إلى الحَياةِ: «ثَبِّتْ قَلْبَكَ فَسَوْفَ تُسافِرُ مَعي بِإذْنِ اللهِ بَعْدَ غَدٍ، فَكُلْ واشْرَبْ لِتَقْوَ عَلى السَّفَرِ.»

قالَ الرَّبيعُ وقَدْ غَمَرَهُ البِشْرُ والتَّفاؤُلُ والأَمَلُ في انْفِراجِ الغُمَّةِ: «إنْ جَمَعْتَ بَيْنَهُما فَلَكَ عِنْدي ما يَسُرُّكَ، وتَعيشُ عُمْرَكَ كُلَّهُ في العِزِّ والنِّعْمَةِ. ولَكَ مِنّي الآنَ عَشَرَةُ آلافِ دينار لَمِصاريفِ السَّفَرِ.»

«خَيْرُ اللهِ عَميمٌ وأنا أَتَيْتُ وسَأعودُ بإذْنِ اللهِ في قافِلَةٍ تَكَفَّلَ أَميرُ المؤمِنين بِكُلِّ تَكاليفِها. وسَيكونُ يوسُفُ في ضِيافَتي حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ بِعَوْدَتِهِ هُوَ وعَروسِهِ إلى الكوفةِ.

وهَذِهِ العَوْدَةُ المَيْمونَةُ سَتكونُ مِنْ حُرِّ مالِهِ، بِالإضافَةِ إلى المَلابِسِ والهَدايا الَّتي قَدْ يَشْتَريها في طَريقِ عَوْدَتِهِ.» اِنْتابَتِ الرَّبيعَ هَواجِسُ ومَخاوِفُ جَديدَةٌ عَلى ابْنِهِ عِنْدَما أَدْرَكَ أَنَّ الخَليفَةَ عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوانَ طَرَفٌ

في القَضِيَّةِ، وقَدْ سَمِعَ عَنْ بَطْشِهِ ما تَشيبُ لَهُ الوِلْدانُ، فَسَأَلَ الطَّبيبَ: «وبِأَيَّةِ صِفَةٍ سَيَذْهَبُ مَعَكَ يوسُفُ إلى دِمَشْقَ؟»

«بِصِفَتِهِ وَلَدي.»

«وماذا سَيَفْعَلُ هُناكَ؟»

«سَأُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَكونُ مُساعِدي في دُكّانِ العَقاقيرِ الطِّبِّيَّةِ.»

«لَكِنْ كَيْفَ سَيعودُ بِعَروسِهِ إلى الكوفةِ؟»

«لَقَدْ وَضَعْتُ خُطَّةً سَأَسْتَخْدِمُ فيها الجارِيَةَ العَجوزَ نِعْمَةَ، والأَميرَةَ زُمُرُّدَةَ أُخْتَ الخَليفَةِ دونَ أَنْ تَعي حَقيقَةَ خُطُواتِهِما الَّتي سَتُؤَدّي في النِّهايَةِ إلى الإفْراجِ عَنْ نَسْمَةِ الرَّبيعِ بِحَيْثُ تَخْرُجُ مِنَ القَصْرِ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً وبِمُبارَكَةِ الخَليفَةِ نَفْسِهِ.»

«وإذا اكْتَشَفَ الخَليفَةُ أَنَّهُ كانَ ضَحِيَّةَ خُطَّةٍ هِيَ في

حَقيقَتِها مُؤامَرَةٌ، كَيْفَ سَتكونُ الحالُ؟»

«لَكَ الحَقُّ في كُلِّ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ، لأَنَّهُ وَحيدُكَ ويَجِبُ أَنْ تَخافَ عَلَيْهِ. لَكِنَّ الخَطَرَ موجودٌ في كُلِّ لَحْظَةٍ يَعيشُها الإنْسانُ، وعَلَيْكَ أَنْ تَخْتارَ بَيْنَ خَطَرِ رُقادِهِ في الفِراشِ إلى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كانَ مَفْعولاً، وبَيْنَ مَخاطِرِ الخُطَّةِ الَّتي سَيُثْبِتُ بِها حُبَّهُ لِعَروسِهِ وعَوْدَتِهِ بِها مُنْتَصِرًا بِإِذْنِ اللهِ. أَمّا عَنْ نَفْسي فأَنا لا أُمارِسُ أَيَّ ضَغْطٍ عَلَيْكُما، لأَنَّ القَرارَ في النِّهايَةِ قَرارُكُما، وإِنَّما جِئْتُ فَقَطْ مِنْ دِمَشْقَ لإيماني بِأَنَّ الطِّبَّ رِسالَةٌ إِنْسانِيَّةٌ ولَيْسَ مُجَرَّدَ حِرْفَةٍ، ولَنْ أَغْضَبَ إذا رَجَعْتُ بِمُفْرَدي. يَكْفيني أَنَّني أَرْضَيْتُ ضَميري.»

صاحَ يوسُفُ كَأَنَّهُ يَحْسِمُ المُناقَشَةَ حَسْمًا نِهائِيًّا:

«سَأَذْهَبُ مَعَكَ حَتّى لَوْ خُضْتُ كُلَّ أَهْوالِ الدُّنْيا.»

ضَحِكَ رِضْوانُ ضَحْكَتَهُ الصّافِيَةَ الَّتي تُزيل أيَّ حَرَجٍ:

وقالَ «لَيْس لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، وأَنا أَضَعُ في اعْتِباري دائمًا

أَسْوأَ الفُروضِ.»

تَساءَلَ الرَّبيعُ في لَهْفَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْبِتَها: «وما هُوَ أَسْوَأُ فَرْضٍ؟»

«أَنْ يَعودَ يوسُفُ إلى الكوفَةِ بِمفْرَدِهِ لَوْ فَشِلَتِ الخُطَّةُ!»

«كَفاكُما اللهُ شَرَّ بَطْشِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ»

«لا تَخَفْ! لا يَضيعُ حَقٌّ وَراءَهُ مُطالِبٌ! وفي النِّهايَةِ لا يَصِحُّ إلا الصَّحيحُ!»

– ٦ –

كانَ قَصْرُ الخَليفَةِ الأُمَوِيِّ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ كَمَدينَةِ الأَحْلامِ في قِصَصِ الأَساطيرِ تُحيطُ بِهِ البَساتينُ الفَيْحاءُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. وتُحيطُ بِالبَساتينِ أَسْوارٌ شامِخَةٌ مَنيعَةٌ، قَدْ يَعْجِزُ البَصَرُ عَنْ إدْراكِ أَبْعادِها، في حينِ وَقَفَ الحُرّاسُ بسُيوفِهِم المُذَهَّبَةِ عِنْدَ البَوّاباتِ الَّتي تَرْتَفِعُ

وَتَهْبِطُ بِسَلاسِلَ حَديدِيَّةٍ تَدورُ حَوْلَ عَجَلاتٍ ضَخْمَةٍ، في حينِ تَجوَّلَ الآخَرونَ حَوْلَ الأسْوارِ عَلى خُيولِهِمِ البَيْضاءِ والسَّوْداءِ والبُنِّيَّةِ. وبِرَغْمِ ارْتِفاعِ الأَسْوارِ الشّاهِقِ، فَقَدْ شَمَخَ القَصْرُ مِنْ قَلْبِها كَأَنَّهُ قَلْعَةٌ أَوْ حِصْنٌ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرُدَّ عَوادي الدَّهْرِ.

كانَ هَذا هُوَ المَنْظَرَ الَّذي خَلَبَ لُبَّ يوسُفَ مَعَ اقْتِرابِ قافِلَةِ رِضْوانَ الطَّبيبِ مِنْ قَصْرِ الخَليفَةِ، فَتَساءَلَ يوسُفُ: «هَلْ هَذا هُوَ قَصْرُ الخَليفَةِ الَّذي تَعيشُ فيهِ وتُمارِسُ عَمَلَكَ؟»

«لَقَدْ مَنَحَني الخَليفَةُ بَيْتًا صَغيرًا في زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا البُسْتانِ الكَبيرِ، وفي الطّابَقِ الأَرْضي مِنْهُ يوجَدُ الدُّكّانُ الَّذي أُمارِسُ فيهِ عَمَلي، وأَسْتَقْبِلُ عَيِّناتِ الدَّمِ الَّتي أَدْرُسُها لِمَعْرِفَةِ نَوْعِ المَرَضِ، أَوْ أَنْتَظِرُ اسْتِدْعاءَ الخَليفَةِ أَوْ أَحَدِ الأُمَراءِ أَوِ الأَشْرافِ.»

تَوَقَّفَتِ القافِلَةُ أَمامَ البَوّابَةِ الكُبْرى فَدَقَّ قَلْبُ يوسُفَ



بِعُنْفٍ حَتّى كادَ يَرْصُدُ نَبْضَهُ في صَدْرِهِ، وهُوَ يَمْسَحُ القَصْرَ بِعَيْنَيْنِ ذاهِلَتَيْنِ، فَهَذا هُوَ القَصْرُ الَّذي يَحْوي حَبيبَةَ العُمْرِ نَسْمَةَ الرَّبيعِ بَيْنَ جَنَباتِهِ. إِنَّهُ لا يُصَدِّقُ أَنَّهُ قَطَعَ المَسافَةَ

مِنَ الكوفَةِ إلى دِمَشْقَ، لَعَلَّهُ يَرى زَوْجَتَهُ، ومَنْ يَدْري، رُبَّما عَجَزَ عَنْ مُجَرَّدِ رُؤيَتِها؟!

أدّى حُرّاسُ البَوّابَةِ التَّحِيَّةَ لِرِضْوانَ الطَّبيبِ، ثُمَّ سَأَلوهُ عَنْ يوسُفَ فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ ابْنُهُ، فَأَدَّوْا لَهُ التَّحِيَّةَ أَيْضًا. وتَرَجَّلا لِيَدْخُلا مِنَ البَوّابَةِ في حينِ انْهَمَكَ الجُنودُ في حَمْلِ المتاعِ إلى البَيْتِ الصَّغيرِ الواقِعِ في زاوِيَةٍ قَريبَةٍ مِنَ البُسْتانِ. لَمْ يُصدِّقْ يوسُفُ نَفْسَهُ وهُوَ يَدْخُلُ البَيْتَ مَعَ رِضْوانَ الطَّبيبِ الَّذي أَصْبَحَ مَحَطَّ حُبِّهِ المُتَدَفِّقِ، والَّذي أَعادَ ثِقَتَهُ بِالبَشَرِ

وبالمُسْتَقْبَلِ بَلْ وبِنَفْسِهِ.

اسْتَرْخى رِضْوانُ ويوسُفُ عَلى الحَشايا الحَريرِيَّةِ والصّوفِيَّةِ لِلاسْتِراحَةِ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ لِبَعْضِ الوَقْتِ قَبْلَ إعْدادِ الحَمّامِ المُعَطَّرِ، ثُمَّ تَناوَلا الطَّعامَ. وسَرْعانَ ما قامَتِ الجَواري الجَميلاتُ عَلى خِدْمَتِهِما وهُنَّ يَحُمْنَ حَوْلَهُما كَالفَراشاتِ الذَّهَبِيَّةِ في ضَوْءِ الشَّمْسِ المُتَسَلِّلِ عَبْرَ الشُّرْفَةِ الرُّخامِيَّةِ. انْتَهَيا مِنْ حَمّامِهِما الدّافِئِ بِعِطْرِهِ وطيبِهِ، ومِنْ غَدائِهِما بِمَشْوِيّاتِهِ وأَطايِبِهِ، وكانَتْ نَظَراتُ يوسُفَ تُتابِعُ الجَواري في لَهْفَةٍ لَعَلَّهُ يَقْتَنِصُ فُرْصَةَ سُؤالِ إحْداهُنَّ عَنْ نَسْمَةِ الرَّبيعِ، ولَمْ تَخْفَ نَظَراتُهُ عَنْ فِطْنَةِ رِضْوانَ الطَّبيبِ، فَنَصَحَهُ بِألا يَقْلَقَ أَوْ يَسْتَعْجِلَ الأُمورَ لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِإذْنِ اللهِ.

هَبَطا مَعًا إلى حَيْثُ فَتَحَ رِضْوانُ دُكّانَهُ، حَيْثُ التَقَطَ عَباءَةً حَمْراءَ حَريرِيَّةً كانَتْ مُعَلَّقَةً عَلى مِشْجَبِ (شَمّاعَةِ مَلابِسَ) وارْتَداها فَبَدا في نَظَرِ يوسُفَ عالِمًا في الطِّبِّ والحِكْمَةِ لا يُشَقُّ لَهُ

غُبارٌ. وسَرْعانَ ما أَخْرَجَهُ مِنْ تَأَمُّلاتِهِ الشّارِدَةِ عِنْدَما أَوْقَفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُلْبِسَهُ قَميصًا مِنَ الحَرير الأَبْيَضِ، ويَلُفَّ حَوْل خَصْرِهِ حِزامًا أَخْضَرَ مُزَرْكَشًا بِالذَّهَبِ، في حينِ لَمْ تَتَوَقَّفْ نَظَراتُ يوسُفَ عَنِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الرُّفوفِ المُزَخْرَفَةِ بِالذَّهَبِ والفِضَّةِ والمُطَعَّمَةِ بِالعاجِ والأَحْجارِ الكَريمَةِ، وقَدْ رُصَّتْ عَلَيْها الأواني الفِضِّيَّةُ والصّينِيَّةُ، والزُّجاجات الَّتي تَحْتَوي عَلى مُخْتَلِفِ الدِّهاناتِ والأَشْرِبَةِ والمساحيقِ والمراهِمِ، وحَوْلَها أَقْداحٌ وأَكْوابٌ مِنَ البِلَّوْرِ، وقِنينات صَغيرةٌ وكَبيرةٌ ذاتُ أَلْوانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وأَكْياسُ الحُبوبِ والأَعْشابِ.

أَفاقَ يوسُفُ مِنْ تَأَمُّلاتِهِ ومُشاهَداتِهِ عَلى صَوْتِ رِضْوانَ وهُوَ يَقولُ لَهُ بِنَبَراتِ الأُسْتاذِ لِتِلْميذِهِ: «يا يوسُفُ، أَنْتَ مِنَ اليَوْمِ وَلَدي، وأَنا أَبوكَ، فلا تَدْعُني إِلا بِذَلِكَ! لا تَنْسَ!»

قالَ يوسُفُ دونَ تَفْكيرٍ وهُوَ يَمْسَحُ البُسْتانَ المُلوكِيَّ

الحالِمَ بِعَيْنَيْهِ حتّى المَدْخَلِ
المَرْمَرِيِّ لِلقَصْرِ:
«سَمْعًا وطاعَةً، يا أبي!»
فَجْأَةً حَمْلَقَ رِضْوانُ
عَبْرَ البُسْتانِ الشّاسِعِ
بِأشْجارِهِ وأحْواضِ زُهورِهِ
ونَوافيرِهِ المُعَطَّرَةِ، ثُمَّ قالَ لِيوسُفَ:
«سَرْعانَ ما بَلَغَتْ أخبارُ وُصولِنا أَسْماعَ القَصْرِ.»
نَظَرَ يوسُفُ في الاتِّجاهِ نَفْسِهِ، فَرأى عَجوزًا تَهْبِطُ في تُؤَدَةٍ عَلى السُّلَّمِ الرُّخاميِّ، وتَسيرِ الهُوَيْنَى عَلى المَمَرِّ الجِرانيتِيِّ الَّذي يَرْبُطُ بَيْنَ القَصْرِ والدُّكانِ. سَأَلَهُ يوسُفُ:
«مَنْ هِيَ؟ يَبْدو أَنَّها قادِمَةٌ إلى هُنا.»
«إنَّها الجارِيَةُ نِعْمَةُ القائِمَةُ عَلى رِعايَةِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ.»
سَمِعَ يوسُفُ الاسْمَ، فَتَسارَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِهِ كَأَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلى اخْتِبارِ مَصيرِيٍّ، وعَلا الخَفَقانُ مَعَ كَلِماتِهِ اللاهِثَةِ:
«لا أَعْرِفُ ماذا أَفْعَلُ أَوْ أَقولُ.»

«دَعِ الأَمورَ تَجري في أَعِنَّتِها، وستلهِمكَ هِيَ عِندَ اللُّزومِ بِما يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ أَوْ تقولَهُ. لا تَنْسَ أَنَّكَ وَلَدي ومُساعِدي وعَلى دِرايَةٍ بِما أَفْعَلُه، وعَلَيْكَ أَنْ تُقَدِّمَ لَها بِنَفْسِكَ الدَّواءَ الَّذي أَحْضَرْتُهُ لَها مِنَ الكوفَةِ وتُلْحِقَهُ بِرِسالَةٍ قَصيرَةٍ تُعَرِّفُها بِوُصولِكَ، ولا تَقُلْ لَها أَكْثَرَ مِنْ



ذَلِكَ، لأَنَّ العَجوزَ سَتَقُصُّ عَلَيْها لِقاءَها مَعَنا بِالتَّفْصيلِ.»
بَلَغَتِ العَجوزُ بابَ الدُّكّانِ فَأَسْرَعَ يوسُفُ لِيُحْضِرَ لَها مَقْعَدًا في حينِ رَحَّبَ بِها رِضْوانُ بِحُبٍّ وبَشاشَةٍ وهِيَ

تُلْقي عَلَيْهِ بِالتَّحِيَّةِ: «أَهْلًا بِكَ ومَرْحَبًا.»

وقالَتْ وهِيَ تَجْلِسُ عَلى المَقْعَدِ الَّذي أَحْضَرَهُ يوسُفُ مِنَ الدّاخِلِ: «أهْلًا بِكَ أَنْتَ ومَرْحَبًا، فَأَنْتَ الَّذي أوْحَشْتَنا كَثيرًا، حَمْدًا للهِ عَلى سَلامَتِكَ.»

«الحَمْدُ للهِ. كُنْتُ مُوَفَّقًا بِبَرَكَةِ اللهِ طَوالَ الرِّحْلَةِ، في الذَّهابِ والعَوْدَةِ، وأَحْضَرْتُ مَعي الدَّواءَ لِنَسْمَةِ الرَّبيعِ.»

«أَعْطِني إِيّاهُ عَلى بَرَكَةِ الله تَعالى، فَقَدْ أَصْبَحَتْ في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلَيْهِ.»

لَمْ يَسْتَطِعْ يوسُفُ أَنْ يَكْتُمَ قَلَقَهُ، فَسَأَلَها: «ماذا جَرى لَها؟ هَلِ اشْتَدَّ المَرَضُ عَلَيْها؟»

فوجِئَتِ العَجوزُ نِعْمَةُ بِلَهْفَتِهِ الغَريبَةِ فَسَأَلَتْهُ: «هَلْ تَعْرِفُها، يا بُنَيَّ؟»

تَرَدَّدَ يوسُفُ، ونَظَرَ في حَرَجٍ إلى رِضْوانَ الَّذي شَجَّعَهُ

بِابْتِسامَةٍ حانِيَةٍ فقالَ: «أبدًا! أَبدًا! لَقَدْ عَلَّمَني أَبي أَنْ نَخافَ ونَحرِصَ على صِحَّةِ مَرْضانا! أَلَيْسَ هَذا عَمَلَنا؟»

قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ العَجوزُ فَمَها، أَكَّدَ لَها رِضوانُ بِنَبَراتٍ واثِقَةٍ:

«إِنَّهُ ابْني بِالفِعْلِ، ولَهُ مُسْتَقْبَلٌ كَبيرٌ بِإِذْنِ اللهِ في عِلْمِ الطِّبِّ والحِكْمَةِ وعِلاجِ الأَمْراضِ.»

ثُمَّ صاحَ في يوسُفَ بِأَنْ يُحْضِرَ الدَّواءَ ويُنَفِّذَ ما أَمَرَهُ بِهِ مِنْ قَبْلُ. أَسْرَعَ يوسُفُ إلى عُلْبَةٍ فِضِّيَّةٍ لِيَفْتَحَها لِيَتَأَكَّدَ مِنْ وُجودِ الدَّواءِ ثُمَّ انْحَنى عَلى وَرَقَةٍ وأَخَذَ يَكْتُبُ عَلَيْها كَلِماتٍ بِسُرْعَةٍ، والعَجوزُ تُتابِعُهُ في شَوْقٍ وإِعْجابٍ قائِلَةً لِرِضوانَ: «حَفِظَهُ اللهُ! إِنَّهُ طَبيبٌ حاذِقٌ وماهِرٌ.»

أَسْرَعَ يوسُفُ لِيُعْطيها العُلْبَةَ فَتَأَمَّلَتْ مَلامِحَهُ عَنْ قُرْبٍ في دَهْشَةٍ وهِيَ تَقولُ: «أُعيذُكَ بِاللهِ، يا وَلَدي، إِنَّ شَكْلَكَ مِثْلُ شَكْلِها، نَفْسُ الوَسامَةِ والجَمالِ والرِّقَّةِ والجاذِبِيَّةِ!»

ضَحِكَ رِضْوانُ ضِحْكَتَهُ الصّافِيَةَ المُبْهِجَةَ: «يَخْلُقُ مِنَ الشَّبَهِ أَرْبَعينَ! رُبَّما كانَتْ بَيْنَهُما ثَمَّةَ قَرابَةٌ!»

كادَتِ العَجوزُ أَنْ تُغادِرَ الدُّكّان لَكِنَّها تَوَقَّفَتْ وتَساءَلَتْ في خُبْثٍ: «وهَلْ يوجَدُ أَبٌ لا يَعْرِفُ أَقارِبَ ابْنِهِ؟»

اسْتَدْرَكَ رِضْوانُ مَوْقِفَهُ في الحالِ وأَطْلَقَ ضِحْكَةً مُجَلْجِلَةً: «ماذا جَرى لِذَكائِكِ أَيَّتُها العَجوزُ نِعْمَةُ؟ كُنْتِ خَيْرَ مَنْ يَفْهَمُ النُّكْتَةَ ويَسْتَمْتِعُ بِها! هَلْ جارَتْ عَلَيْكِ الشَّيْخوخَةُ؟»

«لَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ العُمْرِ أَرْذَلَهُ، وأَتَمَنّى أَنْ أَخْتِمَ حَياتي بِعَمَلٍ يَسْبُغُ عَلى آخِرَتي رِضْوانَ رَبّي.»

«مَنَحَكِ الله سُبْحانَهُ وتَعالى رِضْوانَهُ، فَأَنْتِ لَمْ تَتَخَلَّفي يَوْمًا عَنْ فِعْلِ الخَيْرِ، والكُلُّ يَشْهَدُ بِذَلِكَ.»

قالَتْ وهِيَ تَسْتَديرُ مُغادِرَةً: «وسَأَكونُ أَسْعَدَ النّاسِ لَوْ رَأَيْتُ نَسْمَةَ الرَّبيعِ سَليمَةً مُعافاةً في أَوْجِ صِحَّتِها ونَضارَتِها. السَّلامُ عَلَيْكُمْ.»

«وعَلَيْكُمُ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ.»

وسارَتْ بِبُطْءٍ في المَمَرِّ المؤدّي إلى القَصْرِ الشّامِخِ المنيفِ، ورِضْوانُ يَنْظُرُ إلى الوميضِ المتأَلِّقِ في عَيْنَيْ يوسُفَ الَّذي هَمَسَ: «ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَ العَجوزِ نِعْمَةَ والعَجوزِ قَهرَمانَةَ، مِثْلُ الفَرْقِ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ.»

«حَتّى لا تَقْنَطَ أَنْتَ ونَسْمَةُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَالدُّنْيا لا تَزالُ وسَتَظَلُّ بِخَيْرٍ.»

لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ شُهورٍ طَويلَةٍ مَريرَةٍ، بَرَدَتْ جَمَراتُ النّارِ في وِجْدانِ يوسُفَ تَحْتَ دَفَقاتِ التَّفاؤُلِ الَّذي غَمَرَهُ.

– ٧ –

جَلَسَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ في فِراشِها وهِيَ تَنْتَظِرُ نِعْمَةَ عَلى أَحَرَّ مِنْ جَمْرٍ، لَعَلَّها تَأْتي بِأَخْبارِ الحَبيبِ الغائِبِ الَّذي حُرِمَتْ مِنْهُ ولا تَدْري إذا كانَتْ سَتراهُ مَرَّةً أُخرى أَمْ لا.

لَقَدِ اسْتَكانَتْ أَخيرًا لِراحَةِ اليَأْسِ بَعْدَ أَنْ تَعَذَّبَتْ طويلا

بِنارِ الأَمَلِ الَّذي لا تَعْرِفُ كَيْفَ يَتَحَقَّقُ وهِيَ سَجينَةُ الخَليفَةِ نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ تَجَدَّدَ بَلْ وتَوَهَّجَ في قَلْبِها بِدُخولِ رِضوانَ الطَّبيبِ في حَياتِها كَمَلاكٍ هَبَطَ مِنَ السَّماءِ. وها هو ذا قَدْ سافَرَ خِصّيصًا إلى الكوفَةِ وعادَ ثانِيَةً بِسَلامَةِ اللهِ وهوَ يَحْمِلُ في جَعْبَتِهِ ما لَمْ تَعْرِفْهُ بَعْدُ.

سَمِعَتْ وَقْعَ أَقْدامٍ عَلى دَرَجِ السُّلَّمِ الخَشَبِيِّ، فَعَرَفَتْ أَنَّ نِعْمَةَ قَدْ وَصَلَتْ، فَعَلا خَفَقانُ قَلْبِها الَّذي أَتْعَبَهُ السُّهْدُ والضَّنى، ولَمْ تَمْلِكْ سِوى أَنْ تَدْعُوَ: «يا رَبُّ، يا رَبُّ.»

دَخَلَتْ نِعْمَةُ وهِيَ تَضْحَكُ عَنْ عَمْدٍ، فَسرى البِشْرُ في نَسْمَةِ الرَّبيعِ، وبَدَتْ بَوادِرُ ابْتِسامَةٍ عَلى شَفَتَيْها الشّاحِبَتَيْنِ، في حينِ جَلَسَتْ نِعْمَةُ عَلى حافَةِ الفِراشِ وقَدِ احْتَضَنَتْ نَسْمَةَ قائِلَةً: «لَقَدْ وَصَلا بِسَلامَةِ اللهِ!»

لَمْ تُصَدِّقْ نَسْمَةُ ما سَمِعَتْهُ فَتَساءَلَتْ في ذُهولٍ:

«أَتَقْصِدينَ وَصَلَ أَمْ وَصَلا؟»

عادَتْ نِعْمَةُ إلى ضَحِكِها وأَجابَتْها بِمَدِّ أَلِفِ المثنّى إلى

أَبْعَدِ مَدًى، فَاحْتَضَنَتْها نَسْمَةُ وعادَتْ إلى تَساؤُلِها بَحْثًا عَنْ إجابَةٍ شافيَةٍ: «أَتَقْصِدينَ أَنَّ يوسُفَ وَصَلَ مَعَ رِضْوانَ الطَّبيبِ؟»

«ظَنَّ الطَّبيبُ الحاذِقُ أَنَّ في إمْكانِهِ أَنْ يَخْدَعَني ولَوْ مُؤَقَّتًا، فَادَّعى أَنَّهُ ابْنُه الَّذي أَحْضَرَهُ مَعَهُ مِنَ الكوفَةِ لِيَحْمِلَ عَنْهُ بَعْضَ أَعْباءِ العَمَلِ!»

هَبَطَتْ نَسْمَةُ مِنْ عَلْياء فَرْحَتِها تَحْتَ وَطْأَةِ إِحْباطٍ مُفاجِئٍ: «رُبَّما كانَ ابْنَهُ بِالفِعْلِ!»

«أَتَشُكّينَ في ذَكاءِ نِعْمَةَ؟ لَقَدْ عَرَفْتُهُ مُنْذُ أَوَّلِ لحظَةٍ وَقَعَتْ فيها عَيْناي عَلَيْهِ. إِنَّهُ يُشْبِهُكِ، يا بُنَيَّتي، إلى حَدٍّ كَبيرٍ، كَما لَوْ كانَ الحُبُّ قَدْ صَبَّكُما في قالَبٍ واحِدٍ.

ولِكَي تَقْتُلي الشَّكَّ بِاليَقينِ، إِلَيْكِ عُلْبَةَ الدَّواءِ هَذِهِ، فَقَدْ دَسَّ فيها وَرَقَةً بِخَطِّ يَدِهِ، الَّذي أَعْتَقِدُ أَنَّكِ تَعْرِفينَهُ جَيِّدًا.»

ثُمَّ أَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ طَرْحَتِها العُلْبَةَ الفِضِّيَّةَ الَّتي أَمْسَكَتْها نَسْمَةُ بِأَصابِعَ مُرْتَعِشَةٍ، وفَتَحَتْها لِتُخْرِجَ الوَرَقَةَ غَيْرَ عابِئَةٍ بِالدَّواءِ عَلَى الإِطْلاقِ، وهِيَ تَقْرَأُ بِنَبَراتٍ مُتَهَدِّجَةٍ (مُرْتَعِشَةٍ) مَبْحوحَةٍ:

وَرَدَ الكِتابُ فَلا عَدِمْتِ أَنامِلا

كَتَبَتْ بِهِ حَتّى تَضَمَّخَ طيبا

فَكَأَنَّ موسى قَدْ أُعيدَ لأُمِّهِ

أَوْ ثَوْبَ يوسُفَ قَدْ أَتى يَعْقوبا

زَوْجُكِ وَحَبيبُكِ: يوسُفُ بنُ الرَّبيعِ بنِ حاتِمٍ

لَمْ تَحْتَمِلْ نَسْمَةُ نَشْوَةَ الفَرْحَةِ فارْتَمَتْ على صَدْرِ نِعْمَةَ وتَدَفَّقَتْ دُموعُها عَلَيْهِ، فاحْتَضَنَتْها في أُمومَةٍ حارَّةٍ قائِلَةً: «لَمْ أَجِدْ في دِمَشْقَ كُلِّها أَجْمَلَ ولا أَظْرَفَ ولا أَرْقى مِنْ يوسُفَ زَوْجِكِ وحَبيبِكِ. إِنَّ هَذا اليَوْمَ يَوْمٌ مُبارَكٌ، والآنَ تَناوَلي الدَّواءَ الَّذي جاءَ خِصّيصًا مِنَ الكوفَةِ لأَجْلِكِ حَتّى يَتِمَّ الشِّفاءُ.»



«لَمْ أَعُدْ في حاجَةٍ إلى هَذا الدَّواءِ الَّذي في العُلْبَةِ، وإنَّما أنا في أَشَدِّ الحاجَةِ لِلدَّواءِ الَّذي في الدُّكّانِ والَّذي جاءَ خِصّيصًا أَيْضًا مِنَ الكوفَةِ لأجْلي! لا أكادُ أُصَدِّقُ، يا نِعْمَةُ، أَنَّ يوسُفَ هُنا في القَصْرِ مَعي. أكادُ أُحِسُّ بِأنْفاسِهِ حَوْلي. نَعَمْ إنَّهُ يَوْمٌ مُبارَكٌ، والآنَ أُريدُ الطَّعامَ والشَّرابَ.»

«كَمْ أنا سَعيدَةٌ، يا حَبيبَتي، أَنْ تَطْلُبي الطَّعامَ بِنَفْسِكِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَنْ أَتَيْتُ إلى هُنا! إنَّها تَباشيرُ الفَرَجِ والخَيْرِ بِإذْنِ اللهِ.»

وطَلَبَتِ العَجوزُ مِنَ الجواري أَنْ يَبْسُطْنَ (يَفْرِشْنَ) الموائِدَ وأَنْ يُقَدِّمْنَ الأَطْعِمَةَ الفاخِرَةَ. وجَلَسَتْ لِتَناوُلِ الطَّعامِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَتْهُنَّ بِمُشارَكَتِها فيهِ، وَهُنَّ لا يُدْرِكْنَ السَّبَبَ، ولَكِنَّهُنَّ أَطَعْنَ أَوامِرَها وجَلَسْنَ إلى المائِدَةِ في اسْتِحْياءٍ.

وفيما هُنَّ كَذَلِكَ، أَقْبَلَ الخَليفَةُ لِلاسْتِفْسارِ كَعادَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ، فَلَمّا رَآها جالِسَةً تَأْكُلُ وتَشْرَبُ وتَضْحَكُ، تَمَلَّكَهُ الفَرَحُ في حينِ اخْتَفَتِ الجَواري في لمحِ البَصَرِ، وانْتَفَضَتْ نِعْمَةُ واقِفَةً ومَعَها نَسْمَةُ، وقَدْ نَسَّقَتْ أَفْكارَها لِتَقولَ: «يا أَميرَ المؤمِنينَ، إنَّ الدَّواءَ الَّذي أَحْضَرَهُ رِضْوانُ الطَّبيبُ مِنَ الكوفَةِ كانَ كَالسِّحْرِ، فَما كادَتْ تَتَناوَلُهُ مَرَّةً واحِدَةً حَتّى زال مَرَضُها واسْتَرَدَّتْ عافِيَتَها.»

«هَذا يَعْني أَنَّهُ كانَ عِنْدَ وَعْدِهِ.»

ثُمَّ التَفَتَ إلى تابِعِهِ الواقِفِ خَلْفَهُ وأَخَذَ مِنْه صُرَّةً مِنَ المَخْمَلِ الأحْمَرِ (القَطيفَةِ الحَمْراءِ) وأَعْطاها لِنِعْمَةَ: «هَذِهِ أَلْفُ دينارٍ مُكافَأَةً لِرِضوانَ الطَّبيبِ، وسَأَعودُ إلى نَسْمَةَ الرَّبيعِ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ حينَ تكونُ قَدِ اسْتَرَدَّتْ جَمالَها وزينَتَها تَمامًا.»

غادَرَ أَميرُ المؤمِنين مَعَ حاشِيَتِهِ القاعَةَ الصَّغيرَةَ، وعِنْدَما تأَكَّدَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ مِنِ ابْتِعادِهِمْ، سَأَلَتْ نِعْمَةُ في لَهْفَةٍ: «هَلْ سَمِعْتِ، يا نِعْمَةُ؟ لَمْ يَتَبَقَّ مِنَ الزَّمَنِ سِوى ثَلاثَةِ أَيّامٍ! لا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّني زَوْجَةٌ حُرَّةٌ ولَسْتُ جارِيَةً.»

«أَنْتِ لا تُدْرِكينَ مَدى جَبَروتِ الخَليفَةِ وبَطْشِهِ. زَواجُكِ مِنْ يوسُفَ بنِ الرَّبيعِ لا يَمْنَحُكَ أَيَّةَ حِمايَةٍ مِنْهُ. عِنْدَما يُقَرِّرُ الحُصولَ عَلى أَيِّ شَيْءٍ، فَلا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلى الوُقوفِ في سَبيلِهِ.»

«هَلْ أَنا مُجَرَّدُ شَيْءٍ، يا نِعْمَةُ؟»

«يَبْدو أنَّ حُبَّ يوسُفَ لَكِ أصابَكِ بِالغُرورِ. إنَّ وُزَراءَهُ ومُساعِديهِ وأَتْباعَهَ هُمْ جَميعًا في نَظَرِهِ أَشْياءُ.»

تَساءَلَتْ وهِيَ تُقاوِمَ أَمْواجَ الإِحْباطِ الجَديدَةَ الَّتي بَدَأَتْ تَغْمُرُها: «والعَمَلُ؟ أَلَيْسَتْ هُناكَ نِهايَةٌ لِهَذا العَذابِ؟»

«لا تَقْنَطي مِنْ رَحْمَةِ اللهِ. فالله سُبْحانَهُ وتَعالى أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ كَبيرٍ.»

اخْتَفى الوَميضُ الجَديدُ في عَيْنَيْ نَسْمَةَ، وحَلَّ مَحَلَّهُ أَلَمُ الانْكِسارِ الَّذي رافَقَها مُنْذُ اخْتِطافِها.

– ٨ –

كانَ رِضْوانُ يُعْطي دَرْسًا لِيوسُفَ في كَيْفِيَّةِ مَزْجِ مَرْهَمٍ مُعَيَّنٍ عِنْدَما لاحَظَ وُجومَهُ الَّذي أَضْعَفَ قُدْرَتَهُ عَلى التَّرْكيزِ فَسَأَلَهُ: «يَبْدو أَنَّكَ لَمْ تَنَمِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ نَوْمًا عَميقًا!»

«حَلَمْتُ أَنَّ الخَليفَةَ اخْتَطَفَ نَسْمَةَ عَلى حِصانٍ طارَ

بِهِما إلى جَزيرَةٍ نائِيَةٍ، وعِنْدَما حاوَلْتُ أَنْ أَلحقَ بِهِما، غَرِقْتُ في البَحْرِ المُعْتِمِ العَميقِ، فاسْتَيْقَظْتُ وقَلْبي يَكادُ يَقْفِزُ مِنْ بَيْنِ ضُلوعي، ولِساني يَلْهَجُ مُرَدِّدًا: أَعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ! بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ!»

«إِنَّها هواجِسُكَ ومَخاوِفُكَ الَّتي تُطارِدُكَ في صَحْوِكَ ومَنامِكَ.»

«ما العَمَلُ الآنَ؟ إِنَّ نَسْمَةَ تَعيشُ في القَصْرِ الَّذي أَراهُ أَمامَ عَيْني ولا أَسْتَطيعُ أَنْ أَراها مُجَرَّدَ رُؤْيَةٍ، ورُبَّما انْقَضَّ عَلَيْها الخَليفَةُ في لحظَةٍ قَريبَةٍ، ويُصْبِحُ مَجيئي مَعَكَ عَبَثًا في عَبَثٍ!»

«هَلْ أَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لِلإِقْدامِ عَلى أَيِّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ اسْتِعادَتِها؟»

«حَتّى لَوْ كانَ في ذَلِكَ ذَهابُ روحي!»

«إِذًا عَلَيْكَ أَنْ تُنَفِّذَ كُلَّ ما تَطْلُبُهُ مِنْكَ نِعْمَةُ.»

عادَ وميضُ اللَّهفَةِ إلى عَيْنَيْ يوسُفَ مَعَ تَساؤُلٍ مُلِحٍّ:
«وما الَّذي سَتَطْلُبُهُ مِنّي نِعْمَةُ؟»

نَظَرَ رِضْوانُ عَبْرَ البُسْتانِ الَّذي تَأَلَّقَتْ خُضْرَتُهُ اليانِعَةُ وأَزْهارُهُ المتَراقِصَةُ بِأَلْوانِها مَعَ هَبّاتِ النَّسيمِ تَحْتَ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةِ، ودونَ تَفْكيرٍ نَظَرَ يوسُفُ في الاتِّجاهِ نَفْسِهِ فَوَجَدَ نِعْمَةَ قادِمَةً وهِيَ تَحْمِلُ صُرَّةً بَدَتْ ثَقيلَةً، وقَدْ أَسْرَعَتْ خُطَواتُها واتَّسَعَتْ عَلى غَيْرِ العادَةِ حَتّى بَلَغَتِ الدُّكّانَ لِتُلْقيَ التَّحِيَّةَ وتَقولَ لاهِثَةً لِيوسُفَ: «لَقَدْ وَجَدْتُ عِنْدَ نَسْمَةَ مِنَ الشَّوْقِ والإخْلاصِ لَكَ أَكْثَرَ مِمّا عِنْدَكَ لَها، فَلَيْسَتْ عِنْدَها أَيَّةُ رَهْبَةٍ مِنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ، وما أَدْراكَ مَنْ هُوَ أَميرُ المُؤْمِنينَ، وكُلُّها عَزْمٌ وتَصميمٌ جَبّارٌ عَلى الامْتِناعِ حَتّى نِهايَةِ المَطافِ حَتّى لَوْ كانَتْ حَياتُها هِيَ الثَّمَنَ! فإذا كانَ لَكَ جَنانٌ ثابِتٌ وقُوَّةُ قَلْبٍ، فَفي إمْكاني أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَكُما وأُخاطِرَ بِنَفْسي مَعَكُما، فَهِيَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ القَصْرِ.»

«جَزاكِ اللهُ كُلَّ خَيْرٍ. أنا فِعْلًا أَكادُ أموتُ شَوْقًا لِرُؤْيَتِها. لَكِنْ ماذا بَعْدَ رُؤْيَتِها في القَصْرِ بِكُلِّ ما يَنْطوي عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ مَخاطِرَ جَمَّةٍ؟»

«أَلَمْ تَقُلْ إِنَّكَ عَلى اسْتِعْدادٍ لِلإِقْدامِ عَلى أَيِّ شَيْءٍ حَتّى لَوْ كانَ فيهِ ذَهابُ روحِكَ؟»

«وأنا ما زِلْتُ مُصِرًّا عَلى ذَلِكَ، لَكِنَّني أُريدُ أَنْ أَعودَ بِزَوْجَتي إلى الكوفَةِ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ اخْتِلاسِ النَّظَرِ إِلَيْها داخِلَ القَصْرِ.»

رَبَّتْ رِضْوانُ كَتِفَ يوسُفَ قائلًا لِيَطْرُدَ القَلَقَ مِنْ داخِلِهِ: «إنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرينَ. والآنَ انْتَقِلْ مِنْ مَرْحَلَةِ الأَقْوالِ إلى مَرْحَلَةِ الأَعْمالِ مَعَ الخالَةِ نِعْمَةَ، فالوَقْتُ لَيْسَ في صالِحِكَ.»

«وأنا تَحْتَ أَمْرِها!»

أَمْسَكَتْ نِعْمَةُ مَرَّةً أُخْرى بِالصُّرَّةِ الثَّقيلَةِ قائِلَةً لَهُ:

«الأَمْرُ للهِ وَحْدَهُ. أُدْخُلْ بِنا مكانًا وَحْدَنا.»

دُهِشَ يوسُفُ لِلطَّلَبِ ونَظَرَ إلى رِضوانَ الَّذي افترَشَتْ وَجْهَهُ ابْتِسامَةٌ راضِيَةٌ، فَلَمْ يَتمالَكْ سِوى أَنْ يَدْخُلَ مَعَها قاعَةً خَلْفَ الدُّكّانِ تُسْتَخْدَمُ كَمَعْمَلٍ لِلْعَقاقيرِ. وهُناكَ فَتَحَتِ الصُّرَّةَ الَّتي بَدَتْ فيها الحُلِيُّ والمَصوغاتُ وبَعْضُ ثِيابِ النِّساءِ، وعِنْدَما وَجَدَتِ الذُّهولَ في عَيْنَيْهِ قالَتْ لَهُ بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ: «نَفِّذْ ما سأَطْلُبُهُ مِنْكَ إذا كُنْتَ تُريدُ أَنْ تَرى زَوْجَتَكَ.»

لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ بَلْ رَضَخَ تَمامًا لِيَدَيْها وهِيَ تُزَيِّنُ مِعْصَمَيْهِ بالحُلِيِّ والمَصوغاتِ، وتُزَوِّقُ شَعْرَهُ الطَّويلَ النّاعِمَ بِالشَّرائِطِ الحريرِيَّةِ البَيْضاء والخَضْراءِ، وتُلْبِسُهُ ثِيابَ النِّساءِ البَرّاقَةَ اللامِعَةَ. وكانَتِ النَّتيجَةُ أَرْوَعَ وأَجْمَلَ مِمّا ظَنَّتْ نِعْمَةُ، إذْ صارَ يوسُفُ كَأَنَّهُ حورِيَّةٌ مِنْ حُورِ الجِنانِ، مِمّا جَعَلَها تقولُ دونَ تَفْكيرٍ وهُوَ لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ: «والله إِنَّك لأَجْمَلُ مِنْ كُلِّ جارِيَةٍ رَأَيْتُها!



امْشِ أَمامي قَليلًا كَما تَمْشي الفَتياتُ الجَميلاتُ.»

كانَ كَمَنْ يَحْلُمُ فَفَعَلَ ما أَمَرَتْهُ. وصارَتْ تُعَلِّمُهُ حَتّى رَأَتْهُ قَدْ أَتْقَنَ حَرَكَةَ الفَتَياتِ في سَيْرِهِنَّ، فَقالَتْ:

«سآخُذُكَ الآنَ وأَدْخُلُ بِكَ القَصْرَ، وإذا اعْتَرَضَ الحاجِبُ طَريقَكَ فَقَوِّ عَزْمَكَ وطَأْطِئْ رَأْسَكَ ولا تَنْطِقْ بِكَلمَةٍ، وأنا أَكْفيكَ كَلامَهُمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.»

انْطَلَقَتْ نِعْمَةُ إلى القَصْرِ ومَعَها يوسُفُ، في حين كانَ رِضْوانُ يُشَيِّعُهُما بِنَظَراتٍ لا تُصَدِّقُ ما فَعَلَتْهُ نِعْمَةُ بِيوسُفَ الَّذي أَصْبَحَ في ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَجْمَلَ جَواري القَصْرِ، ونَظَرَ إلى السَّماءِ وهُوَ يَدْعو لَهُما بالتَّوْفيقِ في هَذِهِ المُهِمَّةِ الَّتي جَعَلَتْهُما يَتَأَرْجَحانِ عَلى حَبْلٍ مَشْدودٍ بَيْنَ الحياةِ والمَوْتِ.

وسَرْعانَ ما بَلَغا القَصْرَ فَدَخَلَتْ قُدّامَهُ لِيَدْخُلَ هُوَ في أَثَرِها. ولما أرادَ الحاجِبُ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الدُّخولِ، صاحَتْ بِهِ قائِلَةً: «ألا تَعْرِفُ الجارِيَةَ سَوْسَنَ مَحْظِيَّةَ الخَليفَةِ؟ كَيْفَ

تَمْنَعُها مِنَ الدُّخولِ؟ ألا تَخافُ عِقابَ أميرِ المُؤْمنينَ؟»

ثُمَّ اسْتَدارَتْ لِتَصيحَ بيوسُفَ قائِلَةً: «أُدْخُلي، يا جارِيةُ، يَجِبُ أن نَكونَ في الميعادِ!»

دَخَلَ يوسُفُ وسارَ خَلْفَها حتّى بَلَغا البابَ المُؤدّي إلى صَحْنِ (وَسَطِ) القَصْرِ، فقالَتْ لَهُ نِعْمَةُ هامِسَةً: «قَوِّ نَفْسَكَ وثَبِّتْ قَلْبَكَ.»

ظَهَرَ مِنْ وَراءِ البابِ، حاجِبٌ عِمْلاقٌ قالَ بِصَوْتٍ أجَشَّ رَنّانٍ رَدَّدَتْ صَداهُ جُدرانُ صَحْنِ القَصْرِ: «أَيْنَ أَنْتِ يا خالَةُ نِعْمَةُ؟ لَقَدْ طَلَبَتْكِ زَوْجَةُ أميرِ المُؤْمنينَ وبَحَثْنا عَنْكِ فَلَمْ نَجِدْكِ. أسْرِعي ولا تَعْتَمدي كَثيرًا عَلى طيبَةِ قَلْبِها.»

فوجِئَتْ نِعْمَةُ بِانْهيارِ خُطَّتِها والشُّحوبِ الَّذي حَطَّ عَلى وَجْهِ يوسُفَ، لَكِنَّها اسْتَعادَتْ إرادَتَها الحَديدِيَّةَ في لَمْحِ البَصَرِ قائِلَةً للحاجِبِ: «كُنْتُ أَقومُ بِتَوْصيلِ الجارِيَةِ سَوْسَنَ إلى نَسْمَةِ الرَّبيعِ التي مَلَكَتْ قَلْبَ الخَليفَةِ ولُبَّهُ.



كانَتْ مَريضَةً كما تَعْلَمُ، ولَمْ تَعُدْ إلَيْها العافِيَةُ إلا بَعْدَ عَذابٍ ويَأْسٍ. وهِيَ الآنَ تُريدُ شِراءَ هَذِهِ الجارِيَةِ.

«لا يَدْخُلُ أحَدٌ هُنا إلا بِإذْنٍ مِنَ الخَليفَةِ، فَارْجِعي بِها لأنّي لَنْ أتْرُكَها تَدْخُلُ!»



«أَيُّها الحاجِبُ الكَبيرُ، ماذا جَرى لِعَقْلِكَ؟ إنَّك إذا مَنَعْتَها مِنَ الدُّخولِ، فَإنَّ سَيِّدَتَنا نَسْمَةَ الرَّبيع سَيَبْلُغُها ذَلِكَ فتَغْضَبُ عَلَيْكَ، ولا تكونُ النَّتيجَةُ إلا قَطْعَ رَأْسِكَ بِأَمْرِ الخَليفَةِ!»

ثُمَّ التَفَتَتْ نِعْمَةُ إلى يوسُفَ وقالَتْ لَهُ بِقُوَّةٍ: «أُدْخُلي، يا جارِيَةُ، ولا تَسْمَعي كَلامَهُ، ولَكِنْ سَأَلْتُكِ بالله لا تُخْبِري سَيِّدَتَكِ بأَنَّهُ حاوَلَ مَنْعَكِ مِنَ الدُّخولِ، فَهُوَ رَجُلٌ طَيِّبٌ وحَريصٌ عَلى أَداءِ واجِبِهِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قالَتْها وهِيَ تَرْمُقُ الحاجِبَ بِنَظْرَةٍ ثاقِبَةٍ فَقالَ لَها: «بِالطَّبْعِ كَذَلِكَ! لَكِنَّها مَسْؤولِيَّتُكِ أَنْتِ عَلى أَيَّةِ حالٍ، يا خالَةُ نِعْمَةُ.»

«لا تَحْمِلْ هَمًّا! كُلُّنا رَهْنُ إشارَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ!»

ثُمْ أَمْسَكَتْ بِذِراعِ يوسُفَ وهِيَ تُشيرُ لَهُ بِيَدِها نَحْوَ المَمَرِّ: «أُدْخُلي مِنْ هُنا ثُمَّ امْشي إلى اليَسارِ، وعُدّي خَمْسَةَ أَبْوابٍ وادْخُلي البابَ السّادِسَ، فإنَّهُ بابُ المكانِ المُعَدِّ لاجْتِماعِكِ بِنَسْمَةِ الرَّبيعِ، أَمّا أنا فَسأُسْرِعُ إلى زَوْجَةِ أَميرِ المؤمِنين.»

دَخَلَ يوسُفُ المَمَرَّ الكَبيرَ، فَعادَتْ نِعْمَةُ أَدْراجَها وقَدْ أَمْسَكَتْ بِذَيْلِ ثَوْبِها حَتّى لا تَتَعَثَّرَ فيهِ وهِيَ تَكادُ

تَعْدو. لَمْ يَكُنْ تَرْكيزُ يوسُفَ عَلى ما يُرامُ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَلْزَمَ الجانِبَ الأَيْسَرَ، لَزِمَ الجانِبَ الأَيمَنَ في سَيْرِهِ المَلْهوفِ وهُوَ يَعُدّ خَمْسَةَ أَبْوابٍ، ودَخَلَ مِنَ البابِ السّادِسِ فَرَأى مَوْضِعًا مَفْروشًا بِالدّيباجِ، وجُدْرانُهُ مُغَطّاةٌ بِسَتائِرِ الحَريرِ المَرْقومَةِ بِالذَّهَبِ، وتَنْتَشِرُ في أَرْجائِهِ رَوائِحُ العودِ والعَنْبَرِ والمِسْكِ الأَذْفَرِ. وكانَ هُناكَ في الصَّدارَةِ سَريرٌ ذَهَبِيٌّ مُطَعَّمٌ بِالزُّمُرُّدِ والعَقيقِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ ودَقّاتُ قَلْبِهِ تَعْلو حَتّى كادَ يَسْمَعُها في طَيّاتِ هَذا السُّكونِ الرَّهيبِ الَّذي يَلُفُّهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

حاوَلَ أنْ يَهْرُبَ مِنْ مَخالِبِ القَلَقِ الَّذي يَنْهَشُهُ بِتَأَمُّلِ تَفاصيلِ الغُرْفَةِ الساحِرَةِ الَّتي جَعَلَتْهُ يَحْلُمُ بِرَغْمِ أَنَّهُ كانَ في قِمَّةِ يَقَظَتِهِ التَّي جَعَلَتْهُ آذانًا مُصغِيَةً لأَيِّ وَقْعِ أَقْدامٍ عَلى بِساطِ المَمَرِّ المَرْمَرِيِّ في الخارِجِ، لَعَلَّها تَكونُ لِنَسْمَةِ الرَّبيعِ، لَكِنَّها لَمْ تَأْتِ!

- ٩ -

سارَتِ الأَميرَةُ زُمُرُّدَةُ أُخْتُ الخَليفَةِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ في المَمَرِّ المَرْمَرِيِّ وخَلْفَها جارِيَتُها الَّتي أَكَّدَتْ لَها أَنَّ القاعَةَ أَصْبَحَتْ جاهِزَةً لِجَلْسَةِ الطَّرَبِ والغِناءِ. وعِنْدَ البابِ السّادِسِ إلى اليَمينِ دَخَلَتِ الأَميرَةُ زُمُرُّدَةُ ومَعَها جارِيَتُها، فَإِذْ بِها تَرى يوسُفَ جالِسًا عَلى حافَةِ الفِراشِ في شُرودٍ وقَلَقٍ، فَظَنَّتْهُ جارِيَةً، وأَشارَتْ إِلَيْهِ قائِلَةً: «مَنْ تَكونينَ، يا جارِيَةُ؟ وما خَبَرُكِ؟ وما سَبَبُ دُخولِكِ هُنا؟ هَلْ أَنْتِ الجارِيَةُ المُطْرِبَةُ القادِمَةُ مِن الموصِلِ؟»

ولما بَقِيَ يوسُفُ ساكِتًا لا يَرُدُّ جَوابًا، قالَتِ الجارِيَةُ: «لا يا سَيِّدَتي! إِنَّها لَيْسَتِ الجارِيَةَ المُطْرِبَةَ؟! إِنَّني لَمْ أَرَ هَذِهِ الجارِيَةَ مِنْ قَبْلُ!»

عادَتِ الأَميرَةُ تَقول لَهُ: «تَكَلَّمي، يا جارِيَةُ، إِنْ كُنْتِ مَحْظِيَّةً لِأَخي وقَدْ غَضِبَ مِنْكِ فَفي اسْتِطاعَتي أَنْ أَسْتَعْطِفَهُ عَلَيْكِ.»

كان يوسُفُ يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ كابوسِ عَقْدِ لِسانِهِ فَلَمْ يَنْطِقْ، فَقالَتِ الأَميرَةُ لِجارِيَتِها بِلَهَجَةٍ آمِرَةٍ: «قِفي بِالبابِ ولا تَدَعي أَحَدًا يَدْخُلُ.»

نَفَّذَتِ الجارِيَةُ الأَمْرَ في الحالِ، في حينِ اقْتَرَبَتِ الأَميرَةُ مِنْ يوسُفَ الَّذي تَصَبَّبَ عَرَقًا وهُوَ في مَلابِسِ النِّساءِ، وأَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ وقَدْ بَهَرَها جَمالُهُ وسِحْرُهُ، لَكِنَّها قالَتْ لَهُ بِصَوْتٍ أَكْثَرَ حِدَّةً:

«عَرِّفيني مَنْ تَكونينَ وما سَبَبُ دُخولِكِ هُنا، فأنا لَمْ أَرَكِ في قَصْرِنا مِنْ قَبْلُ!»

لَكِنَّ يوسُفَ اسْتَمَرَّ في التَّعَلُّقِ بِحِبالِ الصَّمْتِ، فَصَرَخَتْ فيهِ:

«هَلْ أَنْتِ خَرْساءُ؟ هلْ أَنْتِ بَكْماءُ؟»

واجْتاحَها الغَضَبُ ودَفَعَتْ صَدْرَهُ بِيَدِها صارِخَةً:

«تَكَلَّمي، يا جارِيَةُ!»

لَكِنَّها في الوَقْتِ نَفْسِهِ لاحَظَتْ أَنَّ صَدْرَ الجارِيَةِ الَّذي دَفَعَتْهُ بِيَدِها لَيْس فيهِ نَهْدانِ، فانْفَجَرَ بُرْكانُ غَضَبِها وعَلا صُراخُها بِالتَّهديدِ والوَعيدِ:

«ما هَذا؟ هَلْ أَنْتَ رَجُلٌ في ثِيابِ جارِيَةٍ؟ ولماذا جِئْتَ إلى هُنا مُتَنَكِّرًا؟ والله لا بُدَّ مِنْ عِقابِكَ بِضَرْبِ عُنُقِكَ!»

سَقَطَ يوسُفُ في دُوّامَةٍ عاتِيَةٍ مِنَ الرُّعْبِ والفَزَعِ عِنْدَما صَدَمَ أُذُنَيْهِ تَهْديدُها لَهُ بِالقَتْلِ، فَخَرَجَ صَوْتُهُ مُرْتَعِشًا ضَعيفًا: «بِالله، يا سَيِّدَتي، لا تَظُنّي بي السّوءَ، فَما أَنا إلا مَظْلومٌ مِسْكينٌ، وأَنا مُسْتَجيرٌ بِالله وبِكِ! أَنا يوسُفُ ابْنُ الرَّبيعِ بنِ حاتِمِ الكوفِيِّ، وقَدْ جِئْتُ إلى دِمَشْقَ، ودَخَلْتُ هَذا القَصْرَ مُخاطِرًا بِروحي، لأَجْلِ حَبيبَتي وزَوْجَتي نَسْمَةِ الرَّبيعِ الَّتي احْتالَ الحَجّاجُ بنُ يوسُفَ الثَّقَفِيِّ حَتّى أَخَذَها وأَرْسَلَها إلى هُنا بِصِفَتِها جارِيَةً في حينِ أَنَّها زَوْجَةٌ حُرَّةٌ شَريفَةٌ!»

خَفَّفَتِ الأَميرةُ زُمُرُّدَةُ مِنْ لَهْجَةِ وَعيدِها وتَهْديدِها لَهُ، وقالَتْ: «وماذا إذا كُنْتَ كاذِبًا لِكَيْ تَنْجُوَ بِجِلْدِكَ؟»

عِنْدَئِذٍ لَنْ أَبْكِيَ على شَيْءٍ لأَنَّ ضَرْبَ عُنُقي سَيُريحُني مِنَ العَذابِ الَّذي يَحْرِقُني لَيْلَ نَهارٍ. عَلى الأَقَلِّ سَيَرْفَعُ عَنّي ذَنْبَ قَتْلِ نَفْسي بِنَفْسي عِنْدَما أَعْجِزُ عَنْ تَحَمُّلِ الحَياةِ بدونِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ!

«هَلْ تُحِبُّها إلى هَذا الحَدِّ؟ كُنْتُ أَتَمَنَّى مِثْلَ هَذا الحُبِّ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَصيبي!»

«آهٍ، يا سَيِّدَتي، لَوْ تَعْرِفينَ كَمْ أَموتُ شَوْقًا لَها! إنَّ حَياتي بِدونِها لا مَعْنًى لَها ولا طَعْمَ، وكِدْتُ أَنْ أَموتَ فِعْلًا وأنا قَعيدُ الفِراشِ في الكوفَةِ مُنْذُ أَنْ غابَتْ عَنْ حَياتي. ولَمْ تَدُبَّ فِيَّ الحَياةُ مَرَّةً أُخْرى إلا عِنْدَما عَرَفْتُ مَكانَها وقَرَّرْتُ الذَّهابَ إِلَيْها حَتّى لَوْ كانَ في ذَلِكَ القَضاءُ عَلى حَياتي نَفْسِها.»

كانَتْ نَبَراتُ صَوْتِه تَزْدادُ ارْتِعاشًا وخُفوتًا وضَعْفًا، مَعَ

شُحوبٍ افتَرَشَ وَجْهَهُ، ومالَ بِجَسَدِهِ النَّحيفِ ثُمَّ سَقَطَ عَلى البِساطِ الأَحْمَرِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. صاحَتِ الأَميرَةُ في جارِيَتِها: «أَسْرِعي! أَحْضِري ماءً! لا بُدَّ مِنْ إعادَتِهِ لِوَعْيِهِ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ، ثُمَّ اذْهَبي لإِحْضارِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ فَهِيَ خَيْرُ دَواءٍ لَهُ!»

وأَسْرَعَتِ الجارِيَةُ لِتَنْفيذِ أَوامِرِ أَميرَتِها.»

- ١٠ -

كانَتْ نَسْمَةُ الرَّبيعِ تَذْرَعُ غُرْفَتَها (تَتَحَرَّكُ فيها) ذَهابًا وإِيابًا، وَكَأَنَّ مَسًّا مِنَ الجُنونِ قَدْ أَصابَها؛ فَالمَسافَةُ مِنَ الدُّكّانِ إِلى القَصْرِ لا تَسْتَغْرِقُ أَكْثَرَ مِنْ دَقائِقَ، ولا بُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ وَقَعَ لَهُ مَكْروهٌ، ولَكِنْ أَيْنَ اخْتَفَتِ الخالَةُ نِعْمَةُ أَيْضًا؟ لا بُدَّ أَنَّ الخُطَّةَ انْكَشَفَتْ وتَمَّ القَبْضُ عَلَيْهِما، وهُما الآنَ في السِّجْنِ في انْتِظارِ تَنْفيذِ الحُكْمِ بِقَطْعِ الرَّقَبَةِ! لَمْ تَتَوَقَّفْ دُموعُها عَنِ الانْهِمارِ والتَّدَفُّقِ حَتّى أَغْرَقَتْ ثَوْبَها، وهِيَ تَكادُ تَتَعَثَّرُ في وَبَرِ البِساطِ تَحْتَ قَدَمَيْها المُرْتَعِشَتَيْنِ.

فِي لَحظَةٍ خاطِفَةٍ وَجَدَتْ نِعْمَةَ واقِفَةً بِالبابِ فَظَنَّتْ أَنَّ يوسُفَ يَقِفُ خَلْفَها، فَقَفَزَتْ إِلَيْها لَكِنَّها لَمْ تَجِدْ أَحَدًا، فَشَهِقَتْ وأَوشَكَتْ أَنْ تَسْقُطَ لَوْلا أَنَّ نِعْمَةَ سارَعَتْ لِمُسانَدَتِها حَتّى الفِراشِ، وهِيَ تَمْسَحُ جُدْرانَ الغُرْفَةِ بِعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ وتَتَساءَلُ بِصَوْتٍ مَبْحوحٍ:

«أَلَمْ يَأْتِ؟ أَيْنَ ذَهَبَ؟ كَيْفَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكِ؟ لَقَدْ أَدْخَلْتُهُ القَصْرَ في ثِيابِ جارِيَةٍ، وأَخْشى أَنْ يَكونَ قَدْ أَخْطَأَ ودَخَلَ مَقْصورَةً أُخْرى. ولا بُدَّ أَنْ تَكونَ حيلَتي قَدِ انْكَشَفَتْ، وأَصْبَحْنا كُلُّنا الآنَ موشِكينَ على الهَلاكِ.»

جَلَسَتْ نَسْمَةُ عَلى حافَةِ الفِراشِ وقَدِ احْتَضَنَتْها نِعْمَةُ حَتّى لا تَسْقُطَ عَلى وَجْهِها، بِرَغْمِ أَنَّها هِيَ نَفْسُها كانَتْ تَرْتَجِفُ مِنَ الفَزَعِ الَّذي جَعَلَ بَدَنَها ريشَةً في مَهَبِّ الرِّياحِ، وهِيَ تَلْطِمُ خَدَّها قائِلَةً:

«لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ العَلِيِّ العَظيمِ، قَدْ فَرَغَ

أَجَلُنا وهَلَكْنا! لَيْسَ لَنا نَصيبٌ في هَذِهِ الدُّنْيا!»

«لماذا لَمْ تَأْتِ بِهِ بِنَفْسِكَ إلى هُنا؟ أَلَمْ تُدْرِكي أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَبَّطَ ويَتوهَ في قَصْرٍ بِهِ عَشَراتُ المَقْصوراتِ والقاعاتِ والغُرَفِ والممَرّاتِ؟»

«مِنْ نَكَدِ الدُّنْيا عَلَيَّ أَنَّ زَوْجَةَ أَميرِ المُؤمِنينَ بَعَثَتْ تَطْلُبُني عِنْدَما كُنْتُ في الدُّكّان أُدَرِّبُهُ عَلى الخُطَّةِ، وعِنْدَما عُدْتُ إلى القَصْرِ تَلَقَّيْتُ الأَمْرَ الَّذي كانَ عَلَيَّ أَنْ أُنَفِّذَهُ في الحالِ. ووَصَفْتُ لَهُ المَقصورَةَ الَّتي كانَتْ في الممَرِّ عَلى مَرْمى البَصَرِ، ولَمْ يَخْطِرْ بِبالي أَنَّ كُلَّ هَذا يُمكِنُ أَنْ يَحْدُثَ! ضِعْنا وأَمْرُنا للهِ.»

فَجْأَةً وَقَفَتْ جارِيَةُ الأَميرَةِ زُمُرُّدَةَ بِالبابِ وهِيَ تَقولُ لِنَسْمَةَ: «إِنَّ مَوْلاتي تَدْعوكِ إلى مَجْلِسِها.»

انْتَفَضَتْ نَسْمَةُ واقِفَةً وانْطَلَقَ سُؤالُها كَسَهْمٍ طائِشٍ:

«أَيْنَ يوسُفُ؟ ماذا جَرى لَهُ؟»

أجابَتْها الجارِيَةُ بِحَسْمٍ كَالسَّيْفِ: «عِنْدَما تُصْدِرُ مَوْلاتي أَمْرًا فَلا نَمْلِكُ سِوى السَّمْعِ والطّاعَةِ!»

أَدْرَكَتْ نَسْمَةُ الخَطَأَ الَّذي ارْتَكَبَتْهُ فَأَجابَتْ دونَ تَفْكيرٍ:

«لَمْ أَقْصِدْ شَيْئًا!»

«هَيّا بِنا!»

وقَبْلَ أَنْ تَتَحَرَّكَ الجارِيَةُ ومَعَها نَسْمَةُ الرَّبيعِ، أَسْرَعَتْ نِعْمَةُ بِالخُروجِ مُحاوِلَةً الفِرارَ والنَّجاةَ بِنَفْسِها مِنَ الكابوسِ الجاثِمِ على أَنْفاسِها. كانَتْ تَتَوَقَّعُ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ أَنْ يَعْتَرِضَها أَحَدُ الحُرّاسِ لِيَقْبِضَ عَلَيْها، لَكِنَّ الطَّريقَ كانَتْ مَفْتوحَةً أَمامَها وهِيَ مُنْطَلِقَةً إلى دُكّانِ رِضْوانَ الطَّبيبِ لِتَخْتَفِيَ في قاعَتِهِ الخَلْفِيَّةِ، وتَحْكي لَهُ الكارِثَةَ الَّتي حاقَتْ بِهِمْ.

- ١١ -

فَقَدَتْ نَسْمَةُ القُدْرَةَ على التَّفْكيرِ أَوِ الاسْتيعابِ، والجارِيَةُ تَقودُها لِتَدْخُلَ عَلى الأَميرَةِ زُمُرُّدَةَ أُخْتِ الخَليفَةِ،

ولا تَجِدُ عِنْدَها سِوى جارِيَةٍ جَميلَةٍ تَجْلِس مُطْرِقَةً بِحَيْثُ لَمْ يَبْدُ وَجْهُها واضِحًا. كانَتْ تَنْظُرُ شارِدَةً تائِهَةً لا تَدْري ما تَرى أَوْ تَقولُ، فَسَأَلَتْها الأَميرةُ بابْتِسامَةٍ لَمْ تَفْهَمْها:

«هَلْ تَعْرِفينَ هَذِهِ الجارِيَةَ الجَميلَةَ؟»

نَظَرَتْ نَسْمَةُ نَظْرَةً فاحِصَةً هَذِهِ المَرَّةَ فإذا بِها تَشْهَقُ وقَدِ انْعَقَدَ لِسانُها ولَمْ تَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، في حينِ تَدَفَّقَ الذُّهولُ مِنْ عَيْنَيْها مَعَ الدُّموعِ ومَعَ صَوْتِ الأَميرَةِ زُمُرُّدَةَ: «كَيْفَ بِالله لَمْ تَعْرِفي أَنَّكِ واقِفَةٌ وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمامَ زَوْجِكِ وحَبيبِكِ يوسُفَ بنِ الرَّبيعِ بنِ حاتِمٍ؟ تَقَدَّمي وسَلِّمي عَلَيْهِ، فَلَيْس عَلَيْكِ ولا عَلَيْهِ خَوْفٌ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى!»

لَمْ تُصَدِّقْ نَسْمَةُ عَيْنَيْها ولا أُذُنَيْها، لَكِنَّ قَلْبَها اطْمَأَنَّ بَعْدَ أَنْ وَقَفَ يوسُفُ أَمامَها، فأَلْقَتْ بِنَفْسِها على صَدْرِهِ. واخْتَلَطَتْ دُموعُهما في صَمْتٍ أَبْلَغَ مِنْ كُلِّ قَصائِدِ الحُبِّ والغرامِ الَّتي أَبْدَعَتْها قَرائِحُ الشُّعَراءِ. وانْهَمَرَتْ

دُموعُ الأَميرَةِ زُمُرُّدَةَ ومَعَها جارِيَتُها. وعِنْدَما لَمْ تَحْتَمِلِ الأَميرَةُ هَذا الطّوفانَ الجارِفَ رَبَّتَتْ عَلَيْهِما وأَجْلَسَتْهُما عَلى حافَةِ الفِراشِ وجَلَسَتْ قُبالَتَهُما وهِيَ تُغالِبُ دُموعَها قائِلَةً: «اجْلِسا حَتّى نَتَدَبَّرَ في الخَلاصِ مِنَ الأَمْرِ الَّذي وَقَعْتما فيهِ.»

وقالا معًا في صَوْتٍ واحِدٍ مَبْحوحٍ: «سَمْعًا وطاعَةً، فالأَمْرُ لَكِ!»

«والله لَنْ يَنالَكُما سوءٌ قَطُّ، فَقَدْ أَرْسَلَكُما اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى إِلَيَّ لِكَيْ أَرُدَّ لأَخي الخَليفَةِ الطَّعْنَةَ الَّتي ما زِلْتُ أُعاني جُرْحَها حَتّى الآنَ. فَمُنْذُ سَنَتَيْن وَقَعْتُ في حُبِّ فارِسٍ مِنْ حَرَسِ القَصْرِ. كانَ مِثالًا لِلرُّجولَةِ والفُروسِيَّةِ والوَسامَةِ والسِّحْرِ، فَأَحالَ حَياتي إِلى جَنَّةٍ وارِفَةِ الظِّلالِ. ولَمْ أَتوانَ عَنْ مُفاتَحَةِ أَخي الخَليفَةِ في المَوْضوعِ، فَلَمْ تَعُدِ اللِّقاءاتُ العابِرَةُ في البُسْتانِ أَوِ النَّظَراتُ الخاطِفَةُ عَبْرَ شُرْفَةِ القَصْرِ كافِيَةً. لَكِنَّ أَخي

عِنْدَما تَأَكَّد مَنْ أَنَّ حَبيبي لَيْس مِنْ سُلالَةِ أُسْرَتِنا، قَلَبَ لي ظَهْرَ المِجَنِّ. ومَعَ ذَلِكَ لَمْ أَتَخَلَّ عَنْ حَبيبي، اعْتِقادًا مِنّي أَنَّ إِصْراري عَلَيْهِ رُبَّما جَمَعَ شَمْلَنا في النِّهايَةِ.

لَكِنَّني كُنْتُ مُتَفائِلَةً أَكْثَرَ مِنَ اللازِمِ لأَنَّني نَسيتُ أَنَّهُ الخَليفَةُ المُتَجَبِّرُ الَّذي لا يُرَدُّ لَهُ أَمْرٌ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ أَخي الَّذي كانَ يُلاعِبُني في طُفولَتي؛ فَقَدْ رَدَّ عَلى إِصْراري بِأَنَّني سَأَتَسَبَّبُ في دَقِّ عُنُقِ حَبيبي. عِنْدَئِذٍ تَراجَعْتُ وظَلِلْتُ أَسْتَعْطِفُهُ أَلّا يَمَسَّهُ بِسوءٍ، وأَنا مِنْ ناحِيَتي صَرَفْتُ النَّظَرَ عَنْ زَواجي مِنْهُ.

«وكانَ مِنَ الطَّبيعي أَنْ يُصيبَني المَرَضُ والضَّعْفُ والهُزالُ والشُّحوبُ كَما لَو كانَ قَلْبي يَنْزِفُ دَمًا، خاصَّةً أَنَّ أَخي لَمْ يَكْتَفِ بِهَجْري لِحَبيبي الَّذي لَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ مَرَّ بِالمِحْنَةِ، بَلْ قامَ بِنَقْله بِلْ نَفْيِهِ إِلى الأَنْدَلُسِ، أَيْ إِلى آخِرِ الدُّنْيا. لَكِنْ يَبْدو أَنَّ المَثَلَ الَّذي يَقولُ: «إِنَّ كُلَّ ما لا يَقْتُلُني يُقَوّيني»، مَثَلٌ حَكيمٌ تَمامًا. وأَنا امْرَأَةٌ قَوِيَّةٌ

وأَكْرَهُ نَظْرَةَ الآخَرينَ إليَّ كَأُنْثى ضَعيفَةٍ تَعْشَقُ البُكاءَ عَلى اللَّبَنِ المَسْكوبِ.

وسَرْعانَ ما اسْتَرْجَعْتُ إرادَتي، فاسْتَعَدْتُ صِحَّتي، وتَراجَعَ المَرَضُ والضَّعْفُ والهُزالُ والشُّحوبُ، وقَرَّرْتُ أَنْ أَرُدَّ اللَّطْمَةَ حتَّى أُثْبِتَ لأَخي الخَليفَةِ أَنَّ المَرأَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَخْلوقٍ تَحْتَ أَمْرِهِ ورَحْمَتِهِ، لا فَرْقَ في هَذا بَيْنَ أَميرةٍ وجارِيَةٍ. وسَرْعانَ ما جاءَتْ فُرْصَةُ اللَّطْمَةِ، عِنْدَما عَرَضَ عَليَّ أَخي الزَّواجَ مِنْ أَحَدِ أُمَراءِ الأُسْرَةِ، ودونَ أَنْ أَسْأَلَهُ: مَنْ هُوَ؟ رَفَضْتُ العَرْضَ فَاغْتاظَ مُتَسائِلًا في دَهْشَةٍ: دونَ أَنْ تَعْرِفي مَنْ هُوَ؟ فَأَجَبْتُهُ بِنَظَراتٍ ثاقِبَةٍ: بَعْدَ حَبيبي الَّذي نُفِيَ إلى الأَنْدَلُسِ بِسَبَبي، لا يَحِقُّ لي الزَّواجُ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ آخَرَ! فَعادَ إلى جَبَروتِهِ مُؤَكِّدًا أَنَّهُ سَيُجْبِرُني عَلى الزَّواجِ مِنْ هَذا الأَميرِ المَجْهولِ، فَلَيْسَ هُناكَ مَنْ يَجْرُؤُ عَلى أَنْ يَرْفُضَ أَمْرًا لَهُ!

«وكُنْتُ قَدِ اسْتَمْتَعْتُ بِمُمارَسَةِ قُوَّتي فَواجَهْتُ جَبَروتَهُ

بِجَبَروتٍ مُضادٍّ، وأَفْهَمْتُهُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُجْبِرَني عَلى الزَّواجِ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ، لَكِنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ أَنْ يَمْنَعَني مِنَ القَضاءِ عَلى حَياتي بِيَدي! عِنْدَئِذٍ شَعَرَ أَنَّ الأَمْرَ أَوْشَكَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فانْتَفَضَ واقِفًا وغادَرَ المَقْصورَةَ، ومُنْذُ ذَلِكَ الحينِ لَمْ نَتَبادَلْ سِوى جُمَلٍ وعِباراتٍ مُقْتَضَبَةٍ خاصَّةً عِنْدَ تَناوُلِ الطَّعامِ.»

ثُمَّ ابْتَسَمَتِ الأَميرَةُ زُمُرُّدَةُ وهِيَ تَتَنَقَّلُ بِنَظَراتِها بَيْنَ يوسُفَ ونَسْمَةَ، في مُحاوَلَةٍ لالْتِقاطِ أَنْفاسِها، ثُمَّ قالَتْ لَهُما: «والآن أَرْسَلَكُما اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى إِلَيَّ لِكَيْ يُدْرِكَ أَنَّ دَهاءَ المَرْأَةِ أَقْوى مِنْ كُلِّ جَبَروتِهِ كَما سَتَرَوْنَ بِأَعْيُنِكُمْ.

«لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَقْلي الآنَ بِفِكْرَةٍ هِيَ مَصْيَدَةٌ لَنْ يُفْلِتَ مِنْها الخَليفَةُ نَفْسُهُ. ولا داعِيَ لِهَذا الخَوْفِ الَّذي وَمَضَ الآنَ في نَظَراتِكُما، فَأَنا أَدْرى بِما سَأَفْعَلُ، ولَنْ يَنالَكُما سوءٌ قَطُّ. والآنَ مِنْ حَقِّكُما أَنْ تَنْعَما بِبَعْضِ

الرّاحَةِ والسُّرورِ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الأَشْهُرِ مِنَ المكابَدَةِ والمرارَةِ والحُزْنِ والأَلَمِ!»

ثُمَّ قالَتْ لجارِيَتِها: «أَحْضِري أَطْيَبَ طَعامٍ وأَلَذَّ شَرابٍ. فَلَيْسَتْ هُناكَ مُناسَبَةٌ لِلاحْتِفالِ بِها مِثْلَ هَذِهِ المُناسَبَةِ المُثيرَةِ الجَميلَةِ. يَكْفي أَنَّني اسْتَرْجَعْتُ فيكُما قِصَّةَ حُبّي لِفارِسي الغائِبِ في الأَنْدَلُسِ.»

وَجَدَتْ نَسْمَةُ نَفْسَها تَتَكَلَّم وكَأَنَّها تَسْتَمِعُ إلى شَخْصٍ آخَرَ: «أَعادَهُ اللهُ إِلَيْكِ، يا مَوْلاتي، سالِمًا غانِمًا.»

«كَيْفَ، يا نَسْمَةُ؟»

«إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ.»

«ونِعْمَ بِاللهِ.»

ومُدَّ السِّماطُ فَجَلَسوا جَميعًا يَأْكُلونَ ويَشْرَبونَ ويَضْحَكونَ ويَطْرَبونَ، فَنَسِيَتْ نَسْمَةُ هُمومَها الَّتي أَنْسَتْها هُوايَتَها المُفَضَّلَةَ في العَزْفِ عَلى العودِ شُهورًا طَويلَةً

وكَثيرةً، فَطَلَبَتْ عودًا وأَخَذَتْهُ لِتَضْبِطَ أَوْتارَهُ ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِصَوْتِها الشَّجِيِّ العَذْبِ مُغَنِّيَةً هذِهِ الأَبْياتِ:

ولـمّا أَبى الواشُون إلا فِراقَنـا
وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدي وعِنْدَكَ مِنْ ثـارِ
وشَنّوا عَلى أَسْماعِنا كُلَّ غـارَةٍ
وقَلَّ حُماتي عِنْدَ ذاكَ وأَنْصـاري
غَزَوْتُهُمُ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وأَدْمُعـي
ومِنْ مُهْجَتي بِالسَّيْفِ والسَّيْلِ والنّارِ

كانَتْ لحَظاتٍ كالحُلْمِ الَّذي يُمْسِكُ النّائِمُ بِتَلابيبِه في اسْتِماتَةِ مَنْ يَتَشَبَّثُ بِحَبْلِ النَّجاةِ، والرُّءوسُ تَتَمايَلُ مَعَ نَغَماتِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ الَّتي صَدَحَتْ في أَسْماعِهِمْ.

- ١٢ -

مَضَتْ ساعاتٌ وهُمْ يُنْشِدونَ الأَشْعارَ، ويَشْرَبونَ على نَغَماتِ الأَوْتارِ، وقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الطَّرَبُ والسُّرورُ. لَكِنْ في أَعْماقِ يوسُفَ كَمَنَتْ بُؤْرَةٌ كانَتْ تَنْضَحُ بِإحْساسٍ مَنْ

هُوَ مُوشِكٌ على دُخولِ امْتِحانِ العُمْرِ، مَهْما تَلَقّى مِنْ مُؤَشِّراتٍ لِلطُّمَأْنينَةِ والسَّكينَةِ، فَإِنَّ أَيَّ امْتِحانٍ يَحْمِلُ في طَيّاتِهِ احْتِمالاتِ الفَشَلِ أَوِ النَّجاحِ. والفَشَلُ في مِثْلِ هَذا الامْتِحانِ لا يَعْني سِوى نِهايَةِ نَسْمَةَ ورُبَّما نِهايَةِ رِضْوانَ الطَّبيبِ والخالَةِ نِعْمَةَ.

ويَبدو عَلى نَسْمَةِ الرَّبيعِ الَّتي تَصْدَحُ (تُغَنّي) الآنَ بِأَعْذَبِ الأَلحانِ أَنَّ كُلَّ الهُمومِ والمخاوِفِ قَدِ انْزاحَتْ مِنَ على قَلْبِها بَعْدَ كَلامِ الأَميرَةِ زُمُرُّدَةَ وشَخْصِيَّتِها الآسِرَةِ، لَكِنَّهُ كَلامٌ يَظَلُّ بِلا ضَمانٍ عِنْدَما يُدْرِكُ أَميرُ المُؤمِنينَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَروانَ أَنَّ الآخَرينَ قَدِ اسْتَهانوا بذَكائِهِ أَوْ دَهائِهِ، وهُوَ الَّذي يَجْلِسُ عَلى قِمَّةِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ الَّتي تَتَحَكَّمُ في مُقَدَّرات العالَم بِأَسْرِهِ.

وفي لحظَةٍ كَضَرْبَةِ السَّيْفِ الماضي بَدَأَ الامْتِحانُ: فُوجِئوا بِالخَليفَةِ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، ولَـمّا وَقَعَتْ عُيونُهُمْ عَلَيْهِ، انْتَفَضوا واقِفينَ ثُمَّ انْحَنوا في صَمْتٍ وسُكونٍ

مُطْبِقَيْنِ بَعْدَ طَرَبٍ صاخِبٍ. نَظَرَ إلى نَسْمَةَ والعودُ في يَدِها، فقالَ لَها بِابْتِسامَةٍ مُضيئَةٍ: «الحَمْدُ لله الَّذي أَذْهَبَ عَنْكِ المَرَضَ!»

ثُمَّ التَفَتَ إلى يوسُفَ وهُوَ ما زالَ في ثِيابِ النِّساءِ وسَأَلَ أُخْتَهُ الأَميرَةَ زُمُرُّدَةَ الَّتي بَدا عَلَيْها التَّحَفُّزُ: «مَنْ هَذِهِ الجارِيَةُ الَّتي بِجانِبِ نَسْمَةِ الرَّبيعِ؟»

فَأَجابَتْ أُخْتُهُ بِمُنْتَهى الثِّقَةِ والرَّصانَةِ:

«يا أَميرَ المُؤْمنين، هَذِهِ جارِيَةٌ تُحِبُّها نَسْمَةُ الرَّبيعِ، ولا يَلَذُّ لَها أَيُّ طَعامٍ أو شَرابٍ إلا وهِيَ مَعَها!»

«والله إنَّها مَليحَةٌ مِثْلُها، وفي الغَدِ سَأُصْدِرُ أَمْري بِأَنْ يُخْلى لَها مَجْلِسٌ بِجانِبِ مَجْلِسِها مَعَ تَزْويدِهِ بِكُلِّ ما تَحْتاجُ إلَيْهِ.»

كانَتْ عُيون يوسُفَ ونَسْمَةَ مُتَعَلِّقَةً بِما سَوْفَ تَقولُهُ أَوْ تَفْعَلُهُ الأَميرَةُ زُمُرُّدَةُ، فإذْ بِها تَدْعو لِمَدِّ السِّماطِ تَرْحيبًا

بِتَشْرِيفِ أَميرِ المُؤْمِنينَ لَهُمْ بِتَناوُلِ الطَّعامِ والشَّرابِ.
وبِمُجَرَّدِ انْتِهاءِ الخَليفَةِ مِنَ الطَّعامِ طَلَبَ مِنْ نَسْمَةَ أَنْ تُسْمِعَهُ بَعْضَ الأَلْحانِ، فَأَخَذَتِ العودَ وداعَبَتْ بِأنامِلِها الأَوْتارَ، وغَنَّتْ هَذِهِ الأَشْعارَ، وتَفاؤُلٌ غامِضٌ يَسْري في وِجْدانِها:

يا أَشْرَفَ النّاسِ في هَذا الزَّمانِ ومَنْ
بِهِ العُلا والنُّهى والمَجْدُ تَفْتَخِرُ
يا واحِدًا في الوَرى عَدْلًا ومَكْرُمَةً
يا سَيِّدًا ماجِدًا في الكَوْنِ مُشْتَهِرُ
يا مالِكًا لِمُلوكِ الأَرْضِ قاطِـــبَةً
تُعْطي الجَزيلَ، ولا مَنٌّ ولا ضَجَرُ
أَبْقاكَ ربّي عَلى كَيْدِ العِدا أَبَدًا
وزانَ طالِعَكَ الإِقْبالُ والظَّـــفَرُ

طَرِبَ الخَليفَةُ طَرَبًا شَديدًا، واهْتَزَّ فَرَحًا ومَرَحًا، فَتَواصَلَ السُّرورُ والبَهْجَةُ والنَّشْوَةُ حَتّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ

حين صاحَ الخَليفَةُ مُصَفِّقًا: «لله دَرُّكِ، يا نَسْمَةَ الرَّبيعِ، ما أَجْمَلَ صَوْتَكِ، وما أَبْرَعَ عَزْفَكِ، وما أَفْصَحَ لِسانَكِ، وما أَوْضَحَ بيانَكِ!»

فانْتَهَزَتِ الأَميرَةُ زُمُرُّدَةُ هَذِهِ اللَّحظاتِ الذَّهَبِيَّةَ وقالَتْ لأخيها: «يا أَميرَ المُؤْمنينَ، إنّي قَرَأْتُ حِكايَةً في بَعْضِ الكُتُبِ، أُحِبُّ أَنْ أَقُصَّها عَلَيْكَ.»

«وما تِلْكَ الحِكايَةُ؟»

«يُحْكى، يا أَمير المُؤْمنينَ، أَنَّهُ بِمَدينَةِ الكوفَةِ، شابٌّ يافِعٌ يُسَمَّى يوسُفَ بنَ الرَّبيعِ بنِ حاتِمٍ، وكانَتْ لَهُ جارِيَةٌ يُحِبُّها وتُحِبُّهُ بِجُنونٍ، وقَدْ تَرَبَّتْ مَعَهُ في بَيتٍ واحِدٍ.

فَلَمّا بَلَغا أَشُدَّهُما، تَزَوَّج بِها وأَصْبَحَتْ زَوْجَةً حُرَّةً وسَيِّدَةَ نَفْسِها، وعاشا مَعًا في صَفاءٍ وسَعادَةٍ. لَكِنَّ الدَّهرَ رَماهُما بِنَكَباتِهِ، وجارَ عَلَيهِما بِمَصائِبِهِ، وحَكَمَ عَلَيْهِما بالفِراقِ وكانَ ذَلِكَ بِمَكيدَةٍ دَبَّرَها حاكِمٌ غاشِمٌ لمدَينَتِها؛ إِذِ احْتالَ بِخِسَّةٍ حَتّى أَخْرَجَها مِنْ بَيْتِ حَبيبِها وزَوْجِها،

ثُمَّ ادَّعى أَنَّها جارِيَةٌ اشْتَراها بِمالِهِ، وباعَها لأَحَدِ الملوكِ بِعَشَرَةِ آلافِ دينارٍ. ولَكِنَّ الملِكَ الَّذي اشْتراها لَمْ يَنْعَمْ بِها، لأَنَّها مَرِضَتْ حُزْنًا لِفِراقِ مَنْ تُحِبُّهُ ولا تَحْتَمِلُ فِراقَهُ. وكانَ عِنْدَ حَبيبِها وزَوْجِها مِنَ الحُبِّ والهُيامِ بِها مِثْلُ ما عِنْدَها بِهِ، فَفارَقَ أَهْلَهُ ووَطَنَهُ وسافَرَ في طَلَبِها. وظَلَّ يَبْحَثُ عَنْها حَتّى اهْتَدى إِلى مَكانِها، فاحْتالَ حَتّى نَجَحَ في أَنْ يَلْتَقِيَ بِها في قَصْرِ ذَلِكَ المَلِكِ، ولَكِنَّهُ ما كادَ يَلْقاها حَتّى دَخَلَ عَلَيْهِما المَلِكُ الَّذي اشْتَراها مِنَ الَّذي اخْتَطَفَها وسَرَقَها. فَلَمّا رآهُما مَعًا أَمَرَ بِقَتْلِهِما، ورَفَضَ أَنْ يُمْهِلَهُما حَتّى يَسْتَمِعَ إِلى حِكايَتِهِما. فما رَأْيُكَ يا أَميرَ المُؤْمِنينَ في حُكْمِ ذَلِكَ المَلِكِ عَلَيْهِما؟

رانَ صَمْتٌ رَهيبٌ، وعَلَتْ دَقّاتُ قَلْبَيْ يوسُفَ ونَسْمَةَ حَتّى كادَ يَسْمَعُها الآخرونَ، خاصَّةً بَعْدَ أَنْ قالَتِ الأَميرَةُ إِنَّ المَلِكَ أَمَرَ بِقَتْلِهِما. وتَحَجَّرَتِ العُيونُ على شَفَتَي الخليفَةِ الَّذي قالَ: «رَأْيي أَنَّهُ ظَلَمَهُما، وكانَ يَنْبَغي لَهُ أَنْ

يَعْفوَ عَنْهُما لِثَلاثَةِ أَسْبابٍ: الأَوَّلُ أَنَّهُما مُتَحابّانِ، والثّاني أَنَّهُما في مَنْزِلِهِ وتَحْتَ قَبْضَتِهِ بَلْ وفي حِماهُ، والثّالِثُ أَنَّ المَلِكَ يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَعْدِلَ في الحُكْمِ بَيْنَ النّاسِ، كَما يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَعْفُوَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ. ولا شَكَّ أَنَّهُ بِقَتْلِهِما قَدْ فَعَلَ فِعْلًا لا يُشْبِهُ فِعْلَ المُلوكِ!»

فَقالَتْ لَهُ أُخْتُهُ الَّتي أَصْبَحَتْ سَيِّدَةَ المَوْقِفِ: «بارَكَ اللهُ في عَدْلِكَ يا أَخي! والله إِنَّكَ لأَعْدَلُ المُلوكِ وأَرْحَمُهُمْ! لَكِنْ - يا أخي - مَنْ حَكَمَ على نَفْسِهِ بِشَيْءٍ لَزِمَهُ القِيامُ بِهِ، وأَنْتَ قَدْ حَكَمْتَ عَلى نَفْسِكَ!»

رَفَعَ الخَليفَةُ حاجِبَهُ الأَيْمَنَ دَهْشَةً وتَساءَلَ: «وكَيْفَ كانَ ذَلِكَ؟»

التَفَتَتِ الأَميرَةُ إِلى يوسُفَ وقالَتْ لَهُ آمِرَةً: «قِفْ أَمامَ أَميرِ المُؤْمِنينَ حَتّى يَراكَ ويَعْرِفَ حِكايَتَكَ!»

وَقَفَ يوسُفُ لَكِنَّهُ لَمْ يَدْرِ ماذا يَقولُ أَوْ يَفْعَلُ،

فَأَنْقَذَتْهُ الأَميرَةُ بِقَوْلِها لأَخيها في حَسْمٍ واضِحٍ: «يا أميرَ المُؤْمِنينَ، إنَّ هَذِهِ الجارِيَةَ الواقِفَةَ أَمامَكَ ما هِيَ إلا يوسُفُ بنُ الرَّبيعِ الكوفِيُّ أَمّا حَبيبَتُهُ وزَوْجَتُهُ فَهِيَ نَسْمَةُ الرَّبيعِ، وقَدْ سَرَقَها الحَجّاجُ بنُ يوسُفَ الثَّقَفِيُّ، وأَرْسَلَها إِلَيْكَ زاعِمًا أَنَّهُ اشْتَراها بِعَشَرةِ آلافِ دينارٍ، وأَنا أَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ آبائِكَ الطّاهِرينَ أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُما، وتُعيدَ جَمْعَ شَمْلِهِما لِنَغْنَمَ ثَوابَهُما، فإِنَّهُما في قَبْضَتِكَ وفي حِماكَ، وقَدْ أَكلا مِنْ طَعامِكَ، وشَرِبا مِنْ شَرابِكَ، وأَنا الشّافِعَةُ فيهِما، المُسْتَوْهِبَةُ دَمَهُما!»

رانَ صَمْتٌ ثَقيلٌ، ولَمْ يَقْطَعْهُ سِوى بُكاءِ يوسُفَ ونَسْمَةَ اللَّذَيْنِ كانا يَرْتَعِشانِ كَوَرَقَتَيْ شَجَرةٍ في مَهَبِّ الرّيح. فَتَحَ الخَليفَةُ فَمَهُ ونَطَقَ: «لا تَبْكِيا ولا تَحْزَنا، فَوالله لا أَرْجِعُ في حُكْمي، ولَيْسَ لَكُما عِنْدي إِلا الإِكْرامُ!»

ثُمَّ بَدا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ تَذَكَّرَ شَيْئًا غابَ عَنْ بالِهِ، فَتَساءَلَ

مُبْتَسِمًا: «أَلِهَذا السَّبَبِ سافَرَ رِضْوانُ الطَّبيبُ الدّاهِيَةُ إلى الكوفَةِ؟»

انْحلَّتْ عُقْدَةُ لِسانِ يوسُفَ فَتكَلَّم بِنَبَراتٍ مَبْحوحَةٍ مُرْتَعِشَةٍ لِيَحْكِيَ لِلْخَليفَةِ كَيْفَ عرَفَ مَكانَها، وَجميعَ ما كانَ مِنْ أَمْرِهِ حَتّى مُثولِهِ أَمامَهُ. فَتَعَجَّبَ الخَليفَةُ مِنْ ذَلِكَ غايَةَ العَجَبِ، وأَمَرَ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ (قَيِّمَةٍ) لِكُلٍّ مِنْ رِضْوانَ الطَّبيبِ والخالَةِ نِعْمَةَ، ثُمَّ التَفَتَ إلى أُخْتِهِ زُمُرُّدَةَ وقالَ مُبْتَسِمًا:

«أمّا أَنْتِ، يا زُمُرُّدَةُ، فَقَدْ أَثْبَتِّ عَمَلِيًّا أَنَّكِ داهِيَةٌ سِياسِيَّةٌ! فَأَنْتِ تَمْتَلِكينَ المَنْطِقَ، والعَقْلَ الرّاجِحَ، والثِّقَةَ في النَّفْسِ، ونَصْبَ الفِخاخِ للآخَرينَ في هُدوءٍ ورَصانَةٍ بِحَيْثُ لا يُمْكِنُهُمُ التَّراجُعُ عَمّا قَطَعوهُ على أَنْفُسِهِمْ دونَ أَنْ يَدْروا. وامْرَأَةٌ بِهَذِهِ المَواهِبِ هِيَ كَنْزٌ لا يُمْكِنُ التَّفريطُ فيهِ، ولِذَلِكَ فَأَنْتِ مِنَ الآنَ فَصاعِدًا أُخْتي ومُسْتَشارَتي في الوَقْتِ نَفْسِهِ، ولأَنَّني أَصْبَحْتُ واثِقًا كُلَّ الثِّقَةِ في أَفْكارِكِ وآرائِكِ واخْتِياراتِكِ، فَسَوْفَ

آمُرُ بِإعادَةِ حَبيبِكِ الفارِسِ مِنَ الأَنْدَلُسِ، وسأُقيمُ لَكُما احْتِفالًا لِزَواجِكُما لَمْ تَشْهَدْ دِمَشْقُ مَثيلاً لَهُ في فَخامَتِهِ وسِحْرِهِ، فَأَنْتِ اسْمٌ عَلى مُسَمّى.»

غَرِقَ الجَميعُ في أَمْواجِ النَّشْوَةِ، ودُموعِ الفَرَحِ المُنْهَمِرَةِ عَلى الوَجَناتِ دونَ أَنْ تَعْبَأَ الأَصابِعُ بِمَسْحِها. ولَمْ يَأْذَنِ الخَليفَةُ بِسَفَرِ يوسُفَ ونَسْمَةَ إلى الكوفَةِ إلا بَعْدَ قَضاءِ سَبْعَةِ أَيّامٍ في ضِيافَتِهِ، حَتّى يَعودا إلى مَدينَتِهِما وفي جَعْبَتِهِما أَكْبَرُ قَدْرٍ مِن الهَدايا الثَّمينَةِ والذِّكْرَياتِ السَّعيدَةِ الَّتي تُشَكِّلُ لَهُما زادًا لِعُمْرٍ مَديدٍ!

الينابيع تَتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّة، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِضَ قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسِفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتِّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

الينابيع

ISBN 977-16-1048-1



مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم